الطاعون الأسود (٧٤٨-٧٥٢هـ /١٣٤٧-١٣٥١م) بين الطبيب الأندلسي ابن خاتمة الأنصاري (ت٧٧٠هـ/١٣٦٩م) وجامعات وأطباء أوروبا (دراسة وثائقية مقارنة) (*)

مركز البحوث
والدراسات التاريخية

د/ حسام محمود المحلاوي

مدرس بكلية الآداب – جامعة دمياط

مُلخَّص:

أجمعت الكتابات التاريخية والطبية التي تحدثت عن القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي أن المرض الذى ضرب العالم فى منتصف ذلك القرن كان بمثابة عاصفة عصفت به، فلم يعهد العالم مرضاً ينتشر فى أرجائه بهذا الشكل، لأنه كان مرضاً فتاكاً فتك بالمجتمعات من نواحى متعددة، ولقد كان لهذا المرض بالغ الأثر فى التأثير على أعداد السكان فى المدن والريف على حد السواء ؛ لأن نسبة الوفيات به كانت غير مسبوقة، كما ضرب اقتصاد أغلب الدول التي سعت بكل طاقاتها للتغلب على ما نجم عنه من آثار، ظلت لعشرات السنين.

وكان طبيعياً أن يتصدر هذا المرض المشهد التاريخى والطبي والفقهي على السواء من ناحية الكتابة لرصد كل ما يتعلق به، فخرجت المؤلفات فى المشرق والمغرب[١]، تبحث فى أسبابه، وأعراضه وطرق العلاج، بل تخطت بعض الكتابات ذلك بتناول طرق الوقاية منه.

(*) مجلة "وقائع تاريخية" عدد يوليو ٢٠٢٠، الجزء الثانى.

ورغم تعدد الكتابات الطبية عن هذا المرض الذى ثمة اتفاق على نعته بالطاعون الأسود، جاءت بعضها لا تعدوا حبراً على ورق لبعدها كل البعد عن رصد الأسباب الحقيقية له، والتشخيص السليم، وبالتالى كيفية الوقاية منه، ووصف العلاج الطبي المناسب، وعلى الجانب الآخر خرجت بعض الكتابات التي يمكن وصفها بالدقيقة، لتسبق عصرها بمئات السنين، وتتوصل لما لم تنجح غيرها فى إدراكه والوصول إليه إلا فى مطلع القرن العشرين.

وكان الطبيب الأندلسي ابن خاتمة الأنصاري(ت٧٧٠هـ/١٣٦٩م) [٢]، من بين الأطباء القلائل فى العالم الذين تعاملوا مع الطاعون الأسود بطريقة علمية فائقة، فيما يتعلق برصد أسبابه، وتتبع أعراضه، وتشخيصه ثم العلاج المناسب له، وأهم طرق الوقاية منه وتعتبر رسالته عن الطاعون مرجعاً علمياً للعالم للوقاية من الأوبئة الفتاكة،وطرق العلاج، وتجنب ما حدث فى مرض الطاعون الأسود.

وتتجلى أهمية ما كتبه الطبيب ابن خاتمة عن مرض الطاعون، فى دقة ما كتبه، ويرجع السبب فى ذلك إلى اتباعه الطريقة العلمية السليمة فى تشخيص وعلاج المرض، وذلك بطريقة المتابعة والملاحظة الطبية للمرضى، وتدوين تلك الملاحظات لتخرج رسالته عن الطاعون كواحدة من أعظم ما كتب عنه فى العالم أجمع.

والبحث فى مجمله عبارة عن دراسة وثائقية مقارنة بين فريقين ممن تصدوا لهذا المرض بالكتابات عنه ،الفريق الأول؛ يمثله أحد أعظم أطباء عصره، الطبيب الأندلسي ابن خاتمة الأنصاري والفريق الثاني تمثله قلاع الطب فى الغرب الأوربى، التي تصدت لمرض الطاعون فى بلادهم، سواء كانت كليات طبية وبخاصة فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا، أو الأطباء المعاصرين للمرض من غير منتسبى القلاع الطبية الأوربية، مصحوبة بشهادات بعض المعاصرين من غير الأطباء.

وتتمثل الدراسة المقارنة فى رؤية الفريقين للمرض، وكيف تعامل كل

منهما معه، من حيث التعريف به، وأهم أسبابه،وأعراضه والتشخيص السليم له، ورؤيتهم للوقاية وطرق العلاج وهي دراسة وثائقية فى مجملها، تعتمد على الكتابات الوثائقية المعاصرة للمرض، لنستخلص من بين سطورها تعامل الفريقين معه.

وقد اقتضت دراسة الموضوع تقسيمه إلى أربعة عناصر رئيسة تخضع جميعها لعنصر المقارنة بين رؤية الفريقين:

أولاً: الطاعون الأسود وخريطة انتشاره .

ثانياً: أسباب المرض

ثالثاً: الأعراض

رابعاً: الوقاية وطرق العلاج

وأنهي هذا البحث بفضل الله بخاتمة تضم أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، ثم قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها فى اتمام هذا البحث.

أولاً: الطاعون الأسود وخريطة انتشاره:

لم يبتعد ابن خاتمة فى تعريفه للطاعون عما ورد فى كتب اللغة من تعريف، فقد ذهب ابن منظور إلي أن الطاعون فى اللغة هو الوباء، والجمع طواعين، وطعن الرجل فهو مطعون وطعين: أصابه الطاعون، وهو المرض العام، والوباء الذى يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان. (٣)

ونقل ابن خاتمة أن الطاعون هو الموت من الوباء، والجمع الطواعين، وذكر أيضاً أن الطاعون داء، وهو طعن الرجل إذا أصابه ذلك الداء،... فهو مطعون، كما ذكر أن الطاعون قروح تخرج فى المغابن(بواطن الأفخاذ) وفى غيرها(٤).

أما الوباء فى اللغة فقد ذكره ابن منظور بأنه كل مرض عام ويمد ويقصر وجمع المقصور أوباء وجمع الممدود أوبئة وقد وبئت الأرض توبأ فهي موبوءة، وكذلك وبئت توبأ وباءة ووبيئة على فعلة وفعيلة،وأوبأت أيضاً فهي

موبئة،واستوبأت الأرض، وجدتها وبيئة " [٥].

ولقد ذكره الجوهري، صاحب الصحاح، بأنه المرض العام، وقد "...وبئت الأرض توبأ فهي موبوءة إذا كثر مرضها، وكذلك وبئت توبأ وباءةً فهي وبئة، وأوبأت أيضاً فهي موبئة." [٦]

أما ابن خاتمة فقد عرَّف الوباء أيضاً على أنه المرض العام ، وأطلق على الوباء لفظ المُوتان "... وذلك على المجاز إذ أصله فى اللغة الموت يقع فى الماشية.." [٧]، وقال فى تعريفه الاصطلاحي ".. هو مرض عام للناس قتال غالبا عن سبب مشترك.." [٨].

وكذلك أطلق عليه ابن خاتمة أيضاً المرض الوافد،لأن منبعه لم يكن البلاد الأندلسية وإنما كان قد انتقل إليها من الشمال، ولذلك أسماه المرض الوافد ، كما أن ابن خاتمة يرى أن المرض وافد لأنه لم يكن بسبب أكل فاسد أو مشروب سام،أو غيرها من الأسباب الجسدية، وإنما هو مرض ينتقل من الهواء ويقدم على الناس من الخارج، فهو يفد عليهم.[٩]

كما فرق ابن خاتمة بين الطاعون والوباء فيري أن أصل الطاعون القروح الخارجة فى الجسد، أما الوباء فهو عموم الأمراض، ويذكر أن الطاعون أطلق عليه الوباء لأنه يشبهه فى الهلاك، ويرى أن كل طاعون وباء وليس العكس.[١٠]

ويمكن القول أن الخلط بين الطاعون والوباء كان قد استمر حتى لفترة ما قبل ظهور الطاعون الأسود وبعد انتشار الطاعون الأسود فى منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي بدأ الكتاب يميزون بين اللفظين.[١١]

وفى تشخيصه الطبي يذكره ابن خاتمة بأنه "... حمى خبيثة دائمة عن سوء مزاج قلبى بسبب تغيير الهواء عن حالته الطبيعية إلى الحرارة والرطوبة، مهلكة فى الغالب يتبعها كرب وعرق غير عام لا يعقب راحة ولا ترتفع عقبه

حرارة، وقد يوجد لها فتور فى اليوم الثاني واضطراب فى عامة الأوقات، ثم تتزايد من بعد.." (١٢)

ولكون ابن خاتمه ينتمى إلى المدرسة الطبية الأندلسية – التي تميزت عن غيرها بالجانب المعرفي التطبيقى فى مجال الطب، والأدوية والعقاقير والأعشاب، واعتمادها فى الطب على الملاحظة – (١٣)نجح فى التشخيص الطبي السليم للطاعون ورصد أعراضه بطريقة علمية على المرضى فى مدينة المرية Almeria (١٤)الأندلسية التي كان يقطنها، وعالج مرضاها من مرض الطاعون، فرصد طبقاً للأعراض ثلاثة أنواع من الطاعون فى تلك الفترة، أشدها فتكاً وأسرعها انتشاراً هو ذلك النوع الذى يسبب الالتهاب الرئوي، فلا يكاد يسلم منه أحد، وليس له علاج، وهو يستهدف رئة الإنسان فيقوم بهتكها، ومن هنا يموت الإنسان.(١٥)

وذكر ابن خاتمة أيضاً نوعاً آخر من الطواعين وهو الطاعون الذى يسبب قروح الجلد التي تظهر فى شكل نفاخات سوداء، أو حمراء أحياناً، سببها نزيف فى الجلد، يصحبه ارتفاع شديد فى درجات الحرارة، ثم تنفجر هذه القروحات، وبعد الانفجار تؤدى للوفاة.." (١٦).

أما النوع الثالث طبقاً للأعراض فهو الطاعون الدبلى، الذى يسبب الدمامل القاتلة وتكون فى الغالب تحت الإبط وبواطن الأفخاذ (١٧).

وربط ابن خاتمة بين الأنواع الثلاثة للطواعين سالفة الذكر بقوله ".. مرض واحد بالنوع والسبب، مختلف بالكيفيات والأعراض.." (١٨) أى أن الاختلاف فقط فى الكيفية، وظهور الأعراض على المريض.

ومما سبق يتضح أنه ثمة اتفاق على أن الطاعون مرض عام يصيب عدد كبير من الناس فى مكان وينتقل من مكان لآخر والسبب فى ذلك فساد الهواء،أو بالأحرى أنه ينتقل عن طريق الجو، وتسببه بكتريا أو فيروسات، وهو مشترك فى الغالب بين الإنسان والحيوان.

أما الطاعون **عند الأطباء الأوربيين** فقد ورد فى الوثائق المعاصرة التي

رصدت ما كتبه الأطباء عن الطاعون بعدة مسميات، اختلفت باختلاف رؤية الكاتب أو شاهد العيان للطاعون، فقد ربط البعض بين اسمه وما ترتب عليه من نتائج وفاجعته بموت الكثير، أو ربطوا بين اسمه وأعراضه، أو الربط بين اسمه ومصدره.

ومن أرباب الفريق الأول الطبيب الفرنسى الشهير المعاصر للأحداث والذى خاض بنفسه معركة الوجود ضد الطاعون الأسود :"جي دي شولياك" Guy de Chauliac [١٩] (ت٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م)، الطبيب الخاص للباباوات، الذى ألف كتاباً طبياً شهيراً عن الجراحة، وقد أطلق علي الطاعون مسميات قريبة فى معناها من الموت العام، للدلالة على عالمية الوباء وعموميته وانتشاره على نطاق واسع فى تلك الفترة، فقد قيل أن ثلثا سكان بعض المدن الأوربية قد ماتوا فى الوباء، أما العالم كله فقد قدر أن ربع سكان الكرة الأرضية قد ماتوا. [٢٠]

ويرى أن هذا الوباء يختلف عن الأوبئة التي حلت بالعالم من قبل،لأن الأوبئة السابقة كانت تضرب بلد بعينها،أو مجموعة من البلدان،أما هذا الطاعون كان عالمياً، ضرب قارات العالم الثلاث. [٢١] لذلك ورد فى بعض الحوليات الأوربية ما يفيد بعموميته وارتباطها باسمه، فاعتبرته الحوليات المعاصرة فى تلك الفترة أنه أول موت عام. [٢٢]

كما ورد فى بعض الحوليات المعاصرة باسم Peste المستمدة من الكلمة اللاتينيةPestis والتي تعنى المصائب الكبرى التي تحدث للإنسان، ونظراً لعظم فاجعة هذه الجائحة، فقد ارتبط هذا الاسم بطاعون ٧٤٧هـ/١٣٤٩م، لما له من وجهة نظر المعاصرين من هول عظيم، ولذلك منذ ذلك التاريخ أصبح يطلق عليه فى بعض الحوليات المعاصرة باسم Peste لأنه خلف وفيات كارثية. [٢٣]

ولقد ورد هذا الاسم فى المجموعات الوثائقية التي تضم شهادات عدد من القلاع الطبية والأطباء والمعاصرين، والتي قام بنشرها المؤرخ جون ابيرث

John Aberth فى كتابه عن الوباء الأسود الذى اعتمد فيه على مجموعة وثائقية من مصادرها الأولية،وكلها جاءت لشهود عيان، وذكر أيضاً أن الأطباء والمؤرخين والأدباء وكل من كتب عن ذلك المرض من الأوروبيين المعاصرين له، ربطوا بين اسمه وعموميته فلأنه عم العالم بأسره، وكانت نسبة الوفيات فيه مرتفعة، أطلق عليه البعض من المؤرخين فى العصور الوسطى اسم الموت العام،أو الوفيات العظمى The Great Mortality وبخاصة فى مناطق إيطاليا.(٢٤)

وتؤكد فكرة المرض العام، كثرة الوفيات التي كانت فى أوروبا فى تلك الفترة، حتى أن أحد شهود العيان يذكر أنه شاهد بنفسه مرات عديدة، وفى شوارع متفرقة ،أن أعداد كبيرة من الفقراء الذين ماتوا من المرض تم إلقائهم في الشارع وشاهد بنفسه الخنازير تنهش الجثث التي كانت تملأ الشوارع. (٢٥)

ومن أرباب الفريق الثاني الذى ربط بين اسم المرض وأعراضه ما ورد فى كتابات الطبيب والمؤرخ الألمانى هيكر Hecker فى كتابه الوثائقى عن الموت الأسود فى القرن الرابع عشر ، والذى نشر فيه مجموعة وثائقية لشهادات طبية وتاريخية معاصرة أن عدداً من المعاصرين ربطوا بين أعراض المرض واسمه، فقد أطلقوا على هذا الطاعون كلمة Plague وهي كلمة مشتقة من الكلمة الاتينية Plaga وتعنى الورم أو الانتفاخ، لأن تورم أجزاء فى الجسم فى أعلى الفخذين وتحت الإبطين، ومناطق أخرى كانت أهم أعراض المرض. (٢٦)

كما ربط البعض بين اسمه وبين مصدره، فلأن مصدر الوباء بالنسبة لأوروبا كان الشرق، أطلق عليه البعض من المعاصرين له فى كتاباتهم إسم الطاعون الشرقى oriental plague.(٢٧)

أما اسم الموت الأسود(The Black Death) أو الطاعون الأسود The Black plague فكان أول من أطلقه عليه الطبيب والمؤرخ الألمانى هيكر فى كتابه الوثائقى عن الموت الأسود فى القرن الثامن الهجري/ الرابع

عشر الميلادي وانتشر الاسم فى ألمانيا ومناطق أخرى فى الشمال الأوروبى ونعتوه بالموت الأسود وأرجع السبب إلى ذلك لظهور بقع سوداء فى جسم المريض قبل موته لحدوث نزيف تحت الجلد [٢٨].

ومنذ أن ذكر هيكر اسم الطاعون الأسود، أو الموت الأسود The Black Death انتشر الاسم، وأصبح مصطلح يقصد به طاعون القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

وفى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين أطلق أطباء أوروبا على مرض الطاعون الذى اجتاح العالم قرب منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي اسم الطاعون الدبلي Dubonic plague [٢٩]، تمييزاً له عن غيره من الأوبئة، وترجع تسميته بالدبلي لارتباطه ببعض الأورام فى بعض مناطق الجسم والتي كانت تظهر على المريض قبيل وفاته مباشرة.[٣٠]

أما تشخيص المرض عند الأوربيين فقد ظل مبهماً حسب الكتابات الأوربية المؤكدة لعدة قرون، بعد أن أعادوا قراءة شهادات وروايات من عاصروا المرض، فقرأوا ما كان يصيب الإنسان من أعراض للمرض، وبعدها تمكنوا من تحديد نوع الوباء الذى ضرب العالم فى تلك الفترة وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي،وتحديداً فى عام ١٨٩٤م، حين تم التوصل للأسباب الحقيقية للمرض الجرثومى، فقد توصل العالم الفرنسي ألكسندر يرسين A.Yersin إلي أن الأصل فى هذا المرض جرثومة هوائية،تنتقل من البراغيث التي تسمى براغيث الفأر، ولذلك سميت باسمه Yersina Pestis.[٣١]

ولم يتوصل الأطباء فى أوروبا لمعلومات عن الطاعون الأسود الذى اجتاح العالم قرب منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي، إلا بعد أن اجتاح الوباء الثالث أوروبا فى (١٨٩٤-١٩٣٠م)، وهنا اكتسب العلماء فرصة لدراسة الأعراض وطريقة انتقال العدوى من خلال لدغة

برغوث، معدته مملؤءة بالكائنات الحية الدقيقة (بكتيريا ضارة) التي تتكاثر بسرعة وبالتالي تتغذى باستمرار، ويقذف البكتيريا في جسم الإنسان بعد لدغه وهنا تنتقل العدوى إليه، وتستغرق فترة الحضانة في جسم الإنسان من يومين اثنين إلى أسبوع قبل ظهور الأعراض[٣٢] وبذلك يمكن القول أن الطاعون الأسود له عدة عوامل مساعدة هي الجرثومة والفئران والبراغيث والإنسان. [٣٣]

ومما سبق يمكن استخلاص ثلاثة أنواع من الطواعين وكلها كانت موجودة الأول الطاعون اللمفاوى (الدملى)، والعائل فيه الإنسان وناقل العدوى برغوث الفأر، وعلاوة على ذلك هناك نوعان آخران من الطواعين، لكنهما يعتمدان على وجود الطاعون الليمفاوى فى الضحية الأولى، وهذا النوع من الطواعين ناقل العدوى فيه البرغوث البشرى، وينقل العدوى من إنسان لآخر، أما الشكل الثالث فهو الطاعون الرئوي ويعتمد أيضاً على وجود الطاعون الليمفاوى فى الضحية الأولى، وهنا ينتقل المرض من إنسان لإنسان عن طريق رزاز زفير المصاب أثناء التنفس،أو العطس أو الكحة، أو البصق المدمم، وفترة الحضانة هنا من يوم لستة أيام، ومعدل الوفيات به ١٠٠%، وقد كان الشكل الليمفاوى والرئوي هما المنتشرين فى فترة الطاعون الأسود ١٣٤٧-١٣٥١م، وتوفى بهما ثلثا سكان المدن التي أصيبت بهما [٣٤].

خريطة انتشار المرض:

إنّ لكل طاعون أو وباء بداية يبدأ منها ثم ينتشر بعد ذلك، وثمة اجماع بين المؤرخين أن نقطة البداية لمرض الطاعون الأسود كان فى آسيا الصغرى، فى منطقة تعرف بالخطا، وهي بلاد الصين.

وقد رصد ابن خاتمة مصدر المرض وأهم الطرق التي سلكها حتى وصل بلده المرية، واعتمد فى رسم هذه الخريطة على رواية الثقات من شهود العيان من التجار النصارى، ومن أهل سمرقند المترددين على المرية فى تلك الفترة يقول ابن خاتمة: "... وقد اختلف الأمر فى مبدأ هذا الحادث من أين ابتدأ ظهوره، فذكر لى الثقة عن بعض تجار النصارى القادمين علينا بالمرية

أن ابتداءه كان ببلاد الخطا وبلاد الخطا بلسان العجم هي بلاد الصين على ما تلقيته عن بعض الواردين من أهل سمرقند ..." [٣٥]

وذكر ابن خاتمة أن المرض بدأ فى آسيا الوسطى فى شمال منغوليا، ثم تسرب إلى بلاد القرم بناحية البحر الأسود، ومن البحر الأسود انتشر مع حركة التجارة وبخاصة المراكب الجنوية لموانىء البحر المتوسط، من نقطة انطلاقه من إحدى مستوطنات تجار جنوة وهو حصن كافاCaffa ، المتنازع عليه بين الأتراك المسلمين والبيزنطين ويذكر ذلك بقوله ".. ما زال ينتشر من بلاد الخطا ويتصل بما والاها،إلا أن اتصل بعراق العجم وبر التركية، وذكر لى أيضاً عن آخرين من النصارى القادمين علينا أنه بلغهم أن ابتداءه كان بأرض الحبشة وأنه انتشر من هناك فيما يليهم من الأقاليم والأقطار حتى انتهي إلى ديار مصر واتصل بالشام... ثم ترادفت الأخبار بنزوله بحصن قفا من معاقل الجنويين،.. ثم أرض بيرة والقسطنطينية العظمى وجزر الرمانية من سواحل البحر الرومى وبلاد جنوة وغيرهما وعم أكثر قشتالة حتى انتهي إلى إشبيلية من إفرنسة على ريف الأندلس فشمل بلاد أرغون برجلونة وبلنسية... واتصل مع ذلك بجزر البحر الرومى بجزيرة صقلية وسردانية وميورقة ويابسة وانعطف على سواحل العدوة وبلادها من أرض إفريقية، إلى ما يلى المغرب... [٣٦].

أما عن طريقة انتشار المرض فقد كان ينتقل من البحارة المصابين أو من القوارض التي تتحول من السفن الراسية بالموانىء للرصيف، وهو ما يفسر كثرة الإصابات فى المدن الساحلية، وغالباً ما تكون هي بداية نقل العدوى داخل البلاد [٣٧].

أما الوقت الذى استغرقته رحلة المرض من بداية ظهوره إلى وصوله المرية، فقد ذكر ابن خاتمة أنه وصل المرية فى عام ٧٤٩هـ /١٣٤٨م، وأنه استمر ثلاثة سنوات تقريباً. [٣٨]

أما **منشأ الطاعون عند الأطباء الأوربيين**، فتشير الوثيقة الصادرة عن كلية الطب فى باريس في ١٣رجب ٧٤٩هـ /٦ أكتوبر ١٣٤٨ م، وهي الكلية

الأكثر شهرة فى أوروبا في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقد كان المطلوب من أطبائها فى البداية الوصول لأسباب المرض، وطرق وقف انتقال العدوى، ثم التعرف على طرق علاجه،،ومن المحتمل أن ملك فرنسا فيليب السادس ، Philip VI (٧٢٨-٧٤٩هـ/ ١٣٢٨-١٣٥٠م) هو من طلب منهم ذلك [٣٩]، أوضحت فيها أن بداية المرض كانت في بلاد الهند، ثم منها انتقل إلى مناطق أخرى حتى وصل إلى مناطق متفرقة فى العالم [٤٠].

وتؤكد روايات المعاصرين من الأوربيين ممن سجلوا مشاهداتهم عن البدايات الأولى للطاعون نفس البداية، فتشير وثيقة كتبها شاهد عيان هو أحد العاملين فى البلاط البابوى فى مدينة أفينيون فى فرنسا والتي وصلها وباء الطاعون الأسود فى نهاية عام٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، ويدعى لويس سانكتوس، Louis Sanctus وكان أحد أشهر الموسيقين فى تلك الفترة، وقد عمل موسيقياً للبابا كليمنت السادسClemens VI (٧٤٣-٧٥٣هـ/ ١٣٤٢-١٣٥٢م)، عبارة عن رسالة كتبها سانكتوس ومؤرخة بتاريخ٢٨ محرم ٧٤٩هـ/ ٢٧ أبريل ١٣٤٨م،إلى أصدقائه فى مدينة بروج Bruges إحدى مدن بلجيكا،لاطلاعهم على الأخبار والتنبؤات بهذا المرض، وقد جمع في رسالته معلوماته عن الطاعون من الحجاج المسيحين والتجار وغيرهم، وذكر تاريخ وصول المرض لمدينة جنوة، ويحدده بتاريخ١٠ شوال ٧٤٩هـ/ ٣١ ديسمبر في عام ١٣٤٨م، مع التجار على ظهر السفن التجارية، ويضيف أن ثلاثة سفن محملة بالتوابل وغيرها من البضائع دخلت ميناء جنوة بعد قدومها من الشرق، وقد لاحظ الجنويون أن البحارة على السفن يموتون فجأة وبدون علاج، ولذلك تم طردهم من هذا الميناء مع السهام المشتعلة ومحركات الحرب المتنوعة، مع وقف أية تعاملات تجارية معهم على الفور، ومن ميناء إلى ميناء دخلت أخيرا مرسيليا، ولم تكن هناك تحذيرات من وصولوهم، فانتقل المرض منهم للسكان ومات عدد كبير منهم، إلا أن هذه السفن تم طردها بعد ذلك من قبل شعب مرسيليا، وتجولت فى البحر حتى وصلت إسبانيا عن طريق المحيط

الأطلسي ومنها إلى مناطق أخرى فى الجنوب، حتى يتمكنوا من تفريغ بضاعتهم هناك، ومع هذه الرحلة انتقلت العدوى لمناطق كثيرة، وخاصة في المدن والأماكن البحرية في اليونان، ثم في صقلية وإيطاليا، وفي مرسيليا. (٤١)

وفى رواية وثائقية أخري لشاهد عيان هو أحد رهبان صقلية جنوب إيطاليا ويدعى ميشيل دا بيزا **Michele Da Piazza** وهو راهب الفرنسيسكان في دير مدينة كاتانيا **Catania** وقد سجل فى حولياته أن مدينة ميسينا **Messina**. ، الميناء الرئيسى فى جزيرة صقلية، كانت أولى المدن الأوربية التي شهدت أول إصابة بمرض الطاعون الأسود فى رجب ٧٤٨هـ/ أكتوبر ١٣٤٧م. وعلى الرغم من أنهم أرغموا علي الإبحار من الميناء، لكنهم كانوا قد نقلوا العدوى إلى أهل المدينة ، ثم زار بعض سكان مدينة ميسينا مدينة أخرى مجاورة لها على الساحل الشرقى لصقلية، وعلى الرغم من أن أهلها رفضوا استقبالهم، وكانوا يهربون منهم،إلا أن الفئران قامت بما لم يقم به البشر، فقد انتقل إلى المدينة عن طريقهم، ومن مدينة قبرصية إلى أخرى حتى انتشر المرض في أرجاء صقلية ثم بلاد أخرى. (٤٢)

وقد ذكر ميشيل رواية متقاربة إلى حد كبير مع رواية سانكتوس سالفة الذكر، فيذكر أنه بحلول شهر رجب ٧٤٨هـ/ أكتوبر فى عام ١٣٤٧م ، وتحديداً فى يومه الأول ، دخلت ثتنا عشرة سفينة جنوية في ميناء مدينة ميسينا، وكان أفراد طواقمها مصابين بالمرض، وعند دخولهم الميناء كانوا يتساقطون، ونقلوا العدوى لأهل المدينة، فقد انتقلت العدوى لكل من خالطهم، بالحديث،أو بالشراء،أو بالبيع، ويمكن القول أن الضحايا هنا كانوا من الجانبين الجنوى، والميسينوى، وبعد ذلك انتشر المرض فى كل أرجاء صقلية. (٤٣)

ولم يحل شهر رمضان ٧٤٨هـ /ديسمبر ١٣٤٧م حتى كان الموت الأسود قد اجتاح جنوب إيطاليا، المركز التجارى الأهم فى حوض البحر المتوسط، فبها الكثير من المرافىء، ومئات الصيادين، وضرب المرض كذلك الكثير من مناطق جنوب أوروبا. (٤٤) ومن إيطاليا انتقل الطاعون إلى الحوض

الغربي للبحر المتوسط، ففى شوال ٧٤٨هـ /يناير ١٣٤٨م كان قد وصل إلى ميناء مرسيليا فى فرنسا، ومدينة أفينيون مقر الباباوية فى تلك الفترة،وبحلول جمادي الأولي ٧٤٩هـ / صيف ١٣٤٨م كان قد ضرب باقى المدن الفرنسية، ومنها انتقل إلى ألمانيا عبر جنوب فرنسا، وعبر جبال ألبرتات من إيطاليا، وعبر نهر الراين. (٤٥)

وبدأ المرض بعد ذلك يزحف شمالاً حتى ضرب كل أوروبا، ومن جنوبي فرنسا انتقل المرض لانجلترا، فى سبتمبر ١٣٤٨م واجتاح الطاعون مدنها وخاصة العاصمة لندن، وحصد عدداً كبيراً من سكانها، وهرب عددٌ كبيرٌ منها، ومن انجلترا انتقلت العدوى عبر سفينة بحرية أبحرت للنرويج، التي اجتاحها المرض، وحصد أكثر من ثلثى سكانها، وكان أن انتقل المرض إلى روسيا بعد اجتياحه جنوب أوروبا بعد عامين، ووصلها بنفس الأعراض وحصد منها عدداً كبيراً، وقد رصد المعاصرون الروس نفس الأعراض التي سمعوا عنها فى جنوب أوروبا. (٤٦)

خلاصة القول أن سكان المدن الساحلية سواء فى الشرق أو الغرب كانوا أول ضحايا الطاعون، ثم سكان المدن الداخلية، وبخاصة المرتبطة بالتجارة والصناعة، كما أن مدن صقلية وجنوة والبندقية وبيزا كانت مركزاً لانتقال المرض فى أوروبا، ومنهم انتقل للغرب الأوروبى بأكمله.(٤٧)

ثانياً: أسباب المرض:

تناول الطبيب ابن خاتمة بعض أسباب ظهور مرض الطاعون منها التغيرات المناخية، التي أدت لتقلبات جوية منها ارتفاع حرارة الأرض، وارتفاع نسبة الرطوبة، والرياح الحارة الجنوبية، وذكر أنه يمكن التنبؤ بالطاعون من ألوان السماء فى المساء، وفى كثرة الأمطار بغزارة، والرياح الهوجاء، وكثرة الضباب، وذكر أن التغيرات الجوية تؤثر على دورة الحياة الخاصة بالقوارض والحشرات، ومن الممكن أن تكون لتلك الظاهرة علاقة مباشرة بانتشار الطاعون. (٤٨).

وذكر ابن خاتمة أن السبب فى انتشار الوباء بشكل مباشر إنما يكون بفساد الهواء سواء كان فى الكيف أو فى الجوهر، ففساده فى الكيف يكون بفساد كيفياته العرضية دون فساد الجوهر، فتزيد أو تنقص على مقدارها الطبيعى،أما تغيره فى الجوهر فيكون بفساد فصوله الجوهرية وتعفنه وخروجه عن حالته الطبيعية [٤٩].

وقد سبب ابن خاتمة فساد الهواء بضرب أمثلة على ذلك كمخالطة الهواء أبخرة متعفنة كالتي تخرج من مطامير الطعام التي يطول اختزانها، أو من المواضع التي يجمع فيها الرشح من خزر السفن أو الهواء المتصاعد من أفنية الآبار التي يموت فيها الحيوان، أو مخاطة أبخرة أجساد الموتى [٥٠].

ويؤثر حسبما يرى ابن خاتمة فساد الهواء على الحيوانات فتمرض وتموت فتتأثر من جثثها المتعفنة النباتات والأشجار والثمار فتتعفن هذه الأخيرة، فيزيد ذلك من فساد الهواء المحيط بها [٥١].

كما يزيد ابن خاتمة بأن اضطراب فصول السنة وتبدلها يتسبب فى ظهور الأمراض كأن يكون فصل الربيع بارداً ويابساً والخريف على طبيعة الربيع والشتاء على طبيعة الصيف.[٥٢]

وذكر ابن خاتمة الأماكن التي يتغير فيها الهواء مثل مطامير الطعام القديمة الاختزان، وجمات[٥٣] السفن، وحرم البئر الذى يموت فيه الحيوان، وما ينجم عن ذلك من تعفن الهواء، ولم يقتصر الضرر على الإنسان والحيوان بل علي النبات كذلك.[٥٤]

وذكر أيضاً أن السبب البعيد أدى لتغير الهواء، ويرتبط بعلم الفلك، وفصول السنة وما اقترن بها من أمطار ورياح،أو المكان والموضع وخصوصاً السباخ والبطائح والخنادق والآجام، والمجاعة تفضى إلى أكل الحبوب القديمة الاختزان المتعفنة، وبالتالى إلى الوباء.[٥٥]

ويؤكد أن موت الحيوانات مؤشرٌ قويٌ على ظهور الطاعون قبل انتشاره

فى البشر، فإن تغير الهواء وتحوله إلى العفن يهلك الحيوان المتنفس، ويتغير الماء ويتعفن حتى يهلك عنه حيوان الماء. (٥٦)

كما أن المدن الساحلية تكون أكثر عرضة للإصابة بالطاعون بسبب ارتفاع الحرارة والرطوبة بها، وهوائها أكثر استعداداً أن يفسد، بسبب ارتفاع الرطوبة، وركود الهواء، فمتى كان ذلك كان استعداد هذا الهواء على التغير أكثر من غيره، خصوصاً إذا كان البحر جنوبها، أما إذا كان البحر يحيط بها من كل جانب كما هو الحال فى الجزر البحرية فإن احتمال اصابتها بالوباء تكون أكبر. (٥٧)

وتكون البلاد التي تطل على البحار والمحيطات أكثر عرضة للإصابة عن غيرها، ويرجع السبب في ذلك الرياح الجنوبية تخترقها من غير حائل، وهي بذلك تكون أشد استعداداً لقبول المرض عن غيرها، لمناسبة الريح الجنوبية بحرارتها ورطوبتها لطبيعة الهواء الذى نشأ عنه المرض.(٥٨)

ويذكر ابن خاتمة كذلك أن البلاد التي تحيط بها الجبال من ورائها، وتبقي الرياح الجنوبية محصورة فى داخلها يكون استعدادها لقبول الوباء أكثر، كما أن البلاد الواقعة فى المغرب تكون أكثر عرضة للوباء من البلاد الواقعة فى المشرق لأن الرياح الشرقية يابسة بطبيعة الحال. (٥٩)

وقد خلص ابن خاتمة إلى أن الأبخرة المميتة تهب من الجنوب، لذلك نصحوا بفتح النوافذ والأبواب فى البيوت ناحية الشمال، والهواء يكون أشد فتكا فى الصيف، وأول الخريف، ويدلل على ذلك بأن الجو الحار يفتح مسام الانسان وبالتالى يكون عرضة للعدوى أكثر.(٦٠) ويطابق ذلك اشتداد العدوى بالطاعون الرئوي فى شمال أوروبا فى فصل الصيف.

كما يضيف بأن الأطعمة قد تكون هي السبب فى نشر الوباء أو استجابة مناطقها السريعة للعدوى، ويذكر أن المناطق التي ينتشر فيها الوباء هي "... التي يغلب على أهلها أكل الفواكه الرطبة والأغذية العفونية السريعة التحول كالحيتان والألبان وشرب المياه، الراكدة التي فى بطون الأودية...".(٦١)

ويرى أن الصغار فى السن أكثر عرضة للإصابة بالعدوى وسرعة انتشارها بين هذه الفئة العمرية، حيث يذكر أن من كانت الحرارة والرطوبة غالبتين على مزاجه، وهو فى سن الشباب،ولاسيما شباب النساء وكان بطبعه مسترسلاً فى شهواته من الأكل الكثير والنوم ولا يبالى بإدخال الطعام على الطعام، ويتناول أطعمة سريعة التحول، تكون فرصة إصابته بالعدوى أكثر من غيره. (٦٢)

وإذا نظرنا إلى **الرواية الأوربية** للتعرف على أسباب الطاعون الأسود، فعلى المستوى الرسمي ورد فى وثيقة كلية الطب في باريس ".. نحن، أطباء كلية الأطباء في باريس، قمنا بعد دراسة واستشارة ناضجة بشأن الوفيات الحالية، بجمع نصائح أساتذتنا القدامى في الطب، ونعتزم التعريف بأسباب هذا الوباء، بشكل أكثر وضوحًا مما يمكن القيام به وفقًا لقواعد ومبادئ علم التنجيم والعلوم الطبيعية ؛لذلك نعلن أنه بالنسبة لأسباب المرض، بشأن القضية العالمية والبعيدة. لذلك نقول ذلك...أن السبب الأول لهذا الوباء،كان ولا زال أمراً قد حدث فى السماء،،ففى تمام الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٠ مارس ١٣٤٥م، حدث اقتران بين ثلاثة من أعلى الكواكب فى الفضاء، زحل والمشترى والمريخ ،فى هيئة دلو محدثاً فساداً فى الهواء المحيط من حولنا... وعلى الرغم من أن الأوبئة قد تنشأ عن تلوث الماء والغذاء، إلا أن الأوبئة التي تنشأ عن تلوث الهواء تكون أشد فتكاً بالإنسان (٦٣).

وكانت الرواية الطبية الثانية وهي جامعية أيضاً برعاية الطبيب المشهور جنتيل دا فولينيو Gentile Da Foligno (٦٤) مع أساتذة كلية الطب فى جامعة بيروجيا Perugia الإيطالية، ويمكن القول أن الطبيب فولينيو كان أحد أبطال المعركة ضد الطاعون الأسود فلا يزل فى الميدان حتى أصيب بهذا المرض وتوفى بإصابته فى ١٨ يونيو ١٣٤٨م (٦٥).

وقد نشر المؤرخ الألمانى الشهير كارل سودهوف Karl Sudhoff (ت ١٩٣٨م) وهو مؤرخ الطب الألمانى، ومؤسس معهد تاريخ الطب بألمانيا،

فى كتابه الوثائقى عن الطاعون الأسود وثيقة للطبيب الإيطالى فولينيو عن مرض الطاعون الأسود،والذى ذهب إلى نفس السبب الفلكى وهو اقتران الكواكب الكبرى زحل والمشترى والمريخ،الذي أدى اقترانها إلى وجود مادة سامة فى الهواء تنتقل لجسم الإنسان بين القلب والرئتين، والمادة السامة هذه من الأبخرة التي حملها الهواء الذى يتنفسه الإنسان، وأضحى ينتقل من شخص لآخر، بل من بلد لآخر[٦٦].

وقد نشر المؤرخ أنَّا مونتغمري كامبل Anna Montgomery Campbell وثيقة لأساتذة الطب فى جامعة مونبيليه، لم يتعرضوا فيها لسبب ظهور الطاعون، لكنهم تحدثوا فيها عن أن العدوى تنتشر من شخص لآخر عند وجود تلوث فى الهواء ، ومن الممكن حسبما كتب أطباء كلية الطب فى جامعة مونبيليه،أن العدوى تنتقل إلى شخص سليم عن طريق النظر فى عين المصاب، ومن هنا يمكن القول أن انتقالها فى هذه الحالة أسرع بكثير من استنشاق الهواء.[٦٧]

وذكر الطبيب المعاصر شولياك أن السبب فى الطاعون الأسود وانتشاره على هذا الشكل إنما يرجع لاقتران الكواكب الثلاثة زحل والمشترى والمريخ في ٢٤ مارس ١٣٤٥ م، لدرايته بعلم التنجيم، واتفق الناس في هذا على أن اقتران الكواكب كان معصومًا بشكل لا يمكن التنبؤ به في الأحداث العظيمة ؛ الثورات العظيمة للممالك، والأنبياء الجدد، والأوبئة المدمرة، وغيرها من الأحداث التي تجلب الضيق والرعب على البشرية، ولا يوجد مؤلف طبي فى أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلا ويذكرهم أنهم من بين الإنذارات العامة للأوبئة العظيمة . [٦٨]

ومن أهم الأسباب التي أوردها الطبيب الفرنسى شولياك أيضاً مستنداً فى ذلك على رأي طبقة عريضة في المجتمع الأوربى أن غالبية سكان أوروبا اعتقدوا أن اليهود قاموا بتسميم مياه الشرب، وأن الوباء انتشر من مكان إلى مكان، وبذلك سمم اليهود العالم، فقاموا بطردهم من المدن، وتتبعوا بعضهم.[٦٩]

وتدلل على كلام الطبيب شولياك رواية لشاهد عيان وهو المؤرخ جين دى فينيت Jean de Venette (ت٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) الذى يذكر أن اليهود اتهموا بتسميم الآبار والمياه وإفساد الهواء، ومن هنا بدأ العالم كله فى ذلك الوقت يتهمهم بشدة أنهم سبب الطاعون، فأقيمت المذابح لبعضهم، وقتل بعضهم على يد النصارى، حتى وصل الأمر لحرق اليهود فى أحيائهم، ووصلت فى بعض المناطق للتطهير العرقى، وفى بعضها تم طردهم، وأصدرت بعض الحكومات قراراً يحظر وجود أى يهودى لمدة مائتى عام في بلادهم، وحاولت بعض الحكومات الأخرى حماية اليهود من الهلاك على أيدى الناس، لكنهم فشلوا. (٧٠)

وفى الحقيقة لم يوقع البابا كليمنت السادس أى لوم علي اليهود ولم يوجه لهم اتهاماً مباشراً، وبرأتهم كلية الطب فى باريس، وذكرت فى تقريرها أن اليهود أنفسهم لا يشربون غير المياه التي اتهموا بتسميمها، وأنهم عانوا من الموت الأسود مثلما عانى غيرهم، وأصدر مرسوماً يشملهم ورجال الدين برعايتهم.(٧١)

ولقد ذكر شولياك أيضاً أن البعض اعتقد أن النبلاء فى غرب أوروبا وراء هذا المرض وانتشاره، وأنهم هم من قاموا بتسميم العالم، لذلك تم تعيين حراس للمدن، حتى يمنعوا دخول أى غريب أى من المدن، وساد الهلع بين الناس، حتى أنهم كانوا يشكون فى كل شخص يحمل مساحيق أو مواد قريبة منها، فيظنون أنها مواد سامة. (٧٢)

واستمراراً لسلسة اتهام الآخر بالتسبب فى العدوى، اتهم أغنياء أوروبا الفقراء بأنهم سبب العدوى وانتشارها، بل اتهموهم أنهم السبب فى الطاعون منذ بدايته (٧٣).

أما عن الروايات المعاصرة للأحداث فقد ذكر المؤرخ والشاعر والأديب الإيطالى جيوفانى بوكاتشيو Giovanni Boccaccio (٧٤) (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م) الذي عاصر المرض، ووصفه في مقدمة أشهر أعماله الديكاميرون

The Decameron، الذى ألفه بين عامى٧٥٠-٧٥٢هـ/ ١٣٤٩ و ١٣٥١م، وقد ذكر أن سبب الوباء الذى ضرب العالم كان خارج قدرات وعوامل البشر، فيرجعه صراحة إلى كائنات سماوية، وقد حلت هذه الكائنات السماوية بالأرض وأنزلت بها هذه العدوى، وأن هذا كله بسبب أفعال البشر، التي أغضبت الرب، فحل الغضب منه على غالبية البشر بسبب هذه الأفعال التي أغضبته. (٧٥)

وفى وثيقة لويس سانكتوس، Louis Sanctus ذكر أن سبب الطاعون حسب روايات التجار والحجاج القادمين من الشرق، أنه هبت بإحدى مقاطعات الهند عاصفة غير مسبوقة استمرت لثلاثة أيام، فى اليوم الأول منها أمطرت السماء الضفادع،والثعابين، والسحالى والعقارب، والعديد من الوحوش السامة من هذا النوع، وفى اليوم الثاني سمع صوت الرعد، ووميض البرق الممزوج بالأحجار (الثلجية) ذات الحجم الكبير التي سقطت على الأرض، مما أسفر عن مقتل جميع الأشخاص وبخاصة الرجال، وبدأت من السن الأكبر إلى الأقل، وفى اليوم الثالث سقطت النيران جنباً إلى جنب مع دخان نتن من السماء، وكان فيها الفناء، حيث قضت على كل شىء علي ما تبقى من الرجال، والوحوش، واحترقت المدن والقلاع، ونتيجة تلوث الأرض من تلك العدوى، انتقلت منها لمناطق أخرى. (٧٦)

وذكر المؤرخ هيكر أن الروايات الأوربية المعاصرة للطاعون تؤكد أن هناك أحداث كونية خاصة بالطبيعة، كانت قد سبقت الوباء بأعوام، وهي التي تسببت فيه، فيذكر أن زلزال كان قد وقع فى مناطق من الصين، أدى إلى تغيرات فى الجو وتلوث الهواء، وتأثرت الحياة النباتية والحيوانية، وأخذ الناس والحيوانات يموتون، حيث ترتب على هذه الأحداث جفاف رهيب، مصحوباً بالمجاعة، وبخاصة فى الريف، على نهري كيانغ وهواى Kiang and Hoai بالصين، أعقب ذلك سيول عنيفة وأمطار، ومات فى الفيضانات فى العاصمة الصينية كينج ساي Kingsai وحدها حوالى أربعمائة ألف نسمة وبعدها حدث جفاف، وتكررت هذه الزلازل والعواصف فى السنوات التالية حتى عم الجفاف

بصورة مخيفة وفى عام ١٣٤٧م ترتب علي ذلك كله ظهور الطاعون. [٧٧]ومن حينها بدأ المرض ينتشر فى بقع واسعة من الأرض، وتذكر الروايات المعاصرة أنه فى عام ١٣٤٧م ظهر ضبابٌ نتنٌ جاء من الشرق غطى سماء أجزاء كبيرة من أوروبا وشوهد فى ألمانيا وإيطاليا، علاوة على انتشار أسراب الجراد، التي قتلت جميعاً بسبب إعصار هب من البحر، وشوهدت ميتة بأطنان على الشاطىء، ونتج عن ذلك كله هواء ضار.[٧٨]

ولا يمكن أن نغفل عبارة هنا ذكرها الراهب ميشيل دى بيزا فى حولياته بخصوص السبب فى انتشار الوباء وسط التجار الجنويين ، وهو يرجع ذلك إلى غضب الرب عليهم، والغريب أنه ذكر أن هذا الغضب مرجعه إلى أفعالهم ".. غضب ربنا الذي نزل عليهم بسبب أفعالهم.." [٧٩]، ولا نعرف السبب الحقيقى الذى كان يقصده فى كلمة أفعالهم، لكن من المحتمل أنها أمور كانت ترتبط بالعمليات التجارية الجنوية التي لم تكن مدن كثيرة ترضى عنها مثل بيزا وجنوة، أو ربما قصد المعاصى التي كان يرتكبها البشر فى حق الرب، وبخاصة أنه كان رجل دين، ويرى أن فى ذلك جلباً لغضب الرب.

ومما سبق يتضح أن أغلب الآراء الأوربية المعاصرة تناولت الطاعون الأسود تحدثت عن أن أسبابه فى أغلبها ناتج من الفلك والتنجيم.

أما عن موقف البابوية من تلك الروايات فقد رفضت رواية قيام اليهود بتسميم المياه، ومالت إلى الرأي الذى يقول بان الوباء هو بسبب غضب الرب من أعمال البشر التي زادت الشرور فيها، ومن ثم حل عليهم غضبه رداً على ذلك. [٨٠] وقد انسحب الموقف نفسه على الأساقفة فى أنحاء أوروبا فقد وقفوا عاجزين أمام هذا الوباء، ولم يكن لهم أى دور كغيرهم من القادة، فقد وقف الكل متجهماً، وتوفيت منهم أعداد كبيرة فى هذا الوباء. [٨١]

وتدلل على تلك الرواية رواية شاهد عيان هو المؤرخ الفرنسي دان فروازار Jean Froissart (ت ١٤٠٥م) حيث يذكر أن التائبين كانوا يطوفون أنحاء ألمانيا، قادمين من خارجها، ليكفروا عن ذنوبهم،يرددون أغانى

عن ميلاد يسوع وآلامه، وكان كل ذلك طلباً للشفاء، وإنهاءاً للطاعون، وكانوا يجلدون أنفسهم بالسياط ذات المسامير الحديدية، حتى تسيل منهم الدماء، أما النساء فيأتين ويأخذن الدماء ويلطخن بها عيونهن ظناً منهن أن فيها الشفاء، وانتشرت هذه الحركة فى مناطق كثيرة فى أوروبا، وكانت نظرة الناس إليهم فى درجة أعلى من رجال الدين بعد أن فشلت الكنيسة ورجالها عن القضاء على الطاعون، لذلك أصدر البابا كليمنت السادس مرسوما يدينهم ويدعو لمطاردتهم أينما وجدوا (٨٢).

وقد ترددت على ألسنة شهود عيان معاصرين للطاعون أنَّ من أسباب الطاعون، أن الطبيعة غضبت على البشر، فقد نزل نيزك نارى على الأرض، فى الشرق، نشأ عنه أبخرة ضارة، أدت للمرض. (٨٣) ومن هنا لجأ الكثيرون من أبناء الغرب الأوربى للكنائس والأديرة، وقاموا بالصلوات والابتهالات فى شكل صلوات خاصة أو قداس عام متضرعين إلى الرب أن يرفع عنهم وينجيهم من هذا الوباء. (٨٤)

رابعاً: أعراض المرض:

اعتمد الطبيب ابن خاتمة فى رصده لأعراض المرض على منهجية طبية واضحة وهي المتابعة والملاحظة، فقد شاهدها بنفسه على من عالجهم فى بلدته المرية، وجمع الأعراض عموماً التي رصدها، وهي أعراض عامة ظهرت جميعها أو بعضها على المرضى تمثلت فى العرق غير العام دون ارتفاع درجة الحرارة، وهذه غالباً تكون البدايات الأولى للإصابة، ثم فى اليوم التالى يحس المصاب بفتور أو بداية ضعف عام فى الجسم، واضطراب كلى يصحبه تشنج وبرود الأطراف والعطش الشديد، ثم تتطور الحالة بالانتقال للجهاز التنفسى فيحس المريض بثقل فى النفس، وضيق فى صدره، ويبدأ فى التنفس بصعوبة بالغة، وفى بعض الحالات يكون ذلك مصحوباً بنفث الدم. وقد يظهر على المريض ألم بأحد الجانبين أو تحت النهدين، مع احتياجه الشديد للماء، وإحساسه غير المنقطع للعطش، ويصحب ذلك كله السعال، والتهاب فى

الحلق، حتى يصعب عليه بلع أى شىء، وتتطور الحالة بالمريض فيبدأ يحس بالاختناق الشديد ووجع الرأس والدوار والغثيان، ثم تكون نهايته. (٨٥)

وبطريقة علمية طبية سبقت عصره بكثير بدأ ابن خاتمة يفرق بين الأعراض، ويقر بأن أعراض الطاعون ليست أعراضاً واحدة، وإنما يمكن إجمالها فى مجموعات من الأعراض، تختلف من مريض لمريض حسب نوع الطاعون الذى أصابه.

أما المجموعة الأولى من الأعراض فهي أعراض الطاعون فى بدايته والتي أطلق عليها ابن خاتمة (حدوث الطواعين)، وهو الطاعون الذى عرف بعد ذلك فى القرن التاسع عشر باسم الطاعون العقدى، وأهم تلك الأعراض أن المريض قد أصيب بالطاعون دون ظهور أعراض عليه فى البداية، ثم تظهر أعراض خفيفة، وهي الإحساس بألم خفيف، وثقل في الجسم، مع تشابه الأعراض فى أغلب المرضى فى البداية ، ثم يبدأ المريض بالإحساس بتكسير فى عظام الجسم، وقشعريرة فى الجلد، وثقل فى الأعضاء وألم فى العروق،وعدم انتظام ضربات القلب، وسرعتها، يصحبه ارتفاع طفيف فى درجات الحرارة، مع تغير لون البول على مراحل. (٨٦) ثم تتطور أعراضه فى ظهور نتوء تحت الإبط،أو خلف الأذنين، التي تؤدى في النهاية إلي وفاة المريض.(٨٧)

أما النوع الثاني من الأعراض فهي أعراض الطاعون الرئوي، والتي تتمثل فى نفث الدم، وهو النوع الأكثر انتشاراً فى أوروبا فى تلك الفترة، لسرعة الانتشار وسرعة نقل العدوى، وتوصل ابن خاتمة إلى أنه لا علاج لهذا النوع من الطاعون، ونسبة الشفاء منه تكاد تكون منعدمة، فجميع مصابيه ميؤوس من شفائهم، وخلاصة ما وصل إليه الطبيب ابن خاتمة من أسباب نفث الدم أن العروق فى رئة المريض لا تتحمل كمية الدم التي يضخها القلب إليها، نتيجة ارتفاع ضغط الدم، فتعجز عن استيعابه فتنفجر ويخرج الدم فى نفث المريض.(٨٨)

ويصحب نفث الدم فى هذا النوع من المرض نفث هواء أسود اللون،كريه الرائحة، لتعفنه، ويبرر ابن خاتمة نفث الهواء الأسود بموت الدم فى الرئة، ويبرر عدم شعور المريض بالألم فى كل ما سبق من نفث الدم والهواء النتن، لفقدان لحم الرئة الإحساس بموت الدم، وذكر أنه فى بعض الحالات قد يحس المريض بألم فى جنبه أو تحت أحد النهدين. (٨٩)

وذكر ابن خاتمة أن هذا النوع الفتاك من الطاعون هو أقل أنواع الطاعون ظهوراً للأعراض، فقد يصاب الإنسان ويظل يتحرك لفترة لا تظهر عليه أية أعراض، مع نقله للعدوى لغيره ، وفجأة يظهر عليه عرض واحد فقط وهو نفث الدم، ولأن كل ما كتبه ابن خاتمة جاء بالرصد والملاحظة فقد ذكر فى هذا العرض تحديداً أن جمع من المصابين عرضوا أنفسهم عليه، وذكروا أنهم لا يعانون من أية أعراض أو ألم، ولكنهم فقط ينفثون الدم، دون وجع ولا حمى، وذكر أن جميع من عرض عليه فى المساء ماتوا فى الصباح وهم لا يعانون سوى من هذا العرض فقط. (٩٠)

وفى بعض الحالات قد تكون أعراض الطاعون الرئوي مصحوبة بعدم قدرة المريض على التنفس، مما ينعكس بشكل مباشر على حالته العامة من السعال الشديد والتهاب الحلق، وارتفاع درجة الحرارة، والقىء والاسهال. (٩١) وذكر ابن خاتمة سهولة العدوى بهذا النوع من المرض لأنه ينتقل بمخالطة المريض، أو متعلقاته.(٩٢)

أما الصنف الثالث من الأعراض التي رصدها ابن خاتمة بالملاحظة على مرضاه فهي أعراض طاعون القروح السوداء الذى عرف بعد ذلك باسم الانتمائى، والتي تتمثل فى عدد من القروح السوداء التي تظهر فى جسم المريض، فى مواضع متفرقة خصوصاً فى الظهر وفى العنق، تنتهي فى النهاية بوفاة المريض، وتبدأ بانتفاخات سوداء أو تضرب إلى الحمرة كأنها تفقيع نار فى الجسد مع ارتفاع فى درجة الحرارة نتيجة هذه الالتهابات ، ثم تنفجر تلك الانتفاخات، وتخلفها بقع سوداء تنبع ماء، وكثيراً ما تتورم المواضع

حولها. (٩٣)

ومما سبق يتضح من رصد ابن خاتمة أن المريض فى النوع الأخطر من الطواعين وهو الطاعون الرئوي،فقد يكون الشخص حاملاَ للعدوى دون ظهور علامات أو أعراض المرض عليه، إلا دلالة بسيطة قد تكون إحساسه بالعرق غير العام، ولعدم ارتفاع حرارته، قد يبرر الطبيب العرق بسبب غير الطاعون، فيرجعه لأسباب أخرى، وفى هذه الحالة ينتقل المريض حامل العدوى من مكان لآخر دون أن يعرف أنه حاملٌ للعدوى، ومن هنا كانت العدوى تنتشر كانتشار النار فى الهشيم.

ويتضح أيضاً مما سبق أن ابن خاتمة قد أجاب عن تساؤل مهم جداً، وهو هل الطاعون فى تلك الفترة كان واحداً مع تعدد الأعراض وتنوعها ؟ أم أنه واحد مع اختلافه باختلاف الأقاليم ؟ أو حسب فصول العام ؟ ويجيب بأن الطاعون لا يختلف باختلاف الأقاليم ولا يتبدل بانتقال الفصول، لكن يترجح مع كل فصل ما يناسب ذلك الفصل من أصنافه وأعراضه، إذ هو مرض واحد بالتنوع مختلف بالكيفيات والأعراض. (٩٤)

أما عن أعراض المرض عند الجامعات والأطباء الأوربيين فبالنظر لوثيقة كلية الطب فى باريس، من بدايتها لنهايتها نجد أنها عالجت نقاط بعينها فتبدأ بتناول أسباب المرض، ثم تدخل فى علاجه وطرق الوقاية منه من وجهة نظر أساتذتها، وحسب ما توصلوا إليه، والغريب أن الوثيقة لم تتطرق أبداً لأعراض المرض. (٩٥)

وربما يكون السبب فى تميز ابن خاتمة فى رصد طرق العلاج بطريقة علمية كما سيتضح فى الصفحات التالية، هي تلك النقطة وهي رصد الأعراض، التي تؤدى إلى التشخيص السليم، وبالتالى البحث عن طرق للعلاج، والوقاية.

أما الطبيب الفرنسى شولياك فقد عرض لأعراض المرض، وذكر أنها

أعراض شاهدها بنفسه على المرضى فى مدينة أفينيون الفرنسية التي كان يقيم فيها وقت الطاعون لتوليه مهمة طبيب البابا كليمونت السادس ،ويقول "... حالة الجسد المريض منهكة،وأصابها الوهن، وعدم القدرة على الحركة ....وقد لاحظت أن المرض فى نوعين من الأعراض، فى الشهرين الأولين كان المرض مصحوباً بالحمى المستمرة وبصق الدم المستمر، ويموت المريض بعد ثلاثة أيام...أما النوع الثاني من الأعراض فقد استمر بقية المدة (خمسة أشهر)، وهو ترافقه أيضاً حمى شديدة، ومستمرة، مع ظهور تورمات لبعض المناطق فى جسم المريض تحت الإبط وعند الفخذين، تتجه للاسوداد بعد ذلك، وفى خلال خمسة أيام يموت المصاب.(٩٦)

أما عن روايات شهود العيان فقد أورد الراهب ميشيل دا بيزا **Michele Da Piazza** فى حولياته عن أعراض المرض، والتي شاهدها بنفسه على المرضى فى مدينة ميسينا .**Messina** الإيطالية، ويذكر أن المرض يأتى على الجسم كله فيصيبه بالتعب، وتظهر بعد ذلك بقع عبارة عن حروق بحجم العدس على الساقين أو الذراعين، وبعدها يبصق المريض الدم بعنف، فى شكل سعال البلغم الدموي لمدة ثلاثة أيام، وقد تظهر بعد الانتفاخات أو التورمات فى مختلف أنحاء الجسم على الفخذ، والبعض الآخر على الساقين والذراعين وعلى الحلق، في البداية تكون بحجم البندق، ثم تكبر، فتصبح بحجم الجوز، ثم تكبر بحجم بيضة أوزة، مع تصلب بارد فى الأطراف، حتى لا يستطيع المريض الوقوف، كل هذا مع استمرار بصق الدم، حتى يصبح جسم الإنسان كله متعفن، كل هذا فى الثلاثة أيام الأولى،وفى اليوم الرابع على أبعد تقدير يكون الضحايا المذكورين أعلاه قد ماتوا. (٩٧)

كما ذكر المؤرخ والأديب الإيطالى جيوفانى بوكاتشو **Giovanni Boccaccio** الذى شاهد بنفسه هذه الأعراض على مرضى فى مدينة فلورنسا،أن أهم أعراض للطاعون الأسود، ويذكر أن نزيف الأنف علامة للموت المحقق، وفى بداية المرض ترى الرجال والنساء يصابون بأورام عند

أصل الفخذين وتحت الإبطين يصل حجمهما أحياناً قدر البيضة، والبعض قدر التفاحة، وبعضها أكبر من بعض ، وخلال وقت قصير تظهر تلك الدمامل على الجسم كله، وسرعان ما تتحول هذه الدمامل إلى بقع سوداء أو بنفسجية تظهر على الأذرع والسيقان وبقية الجسم وتكون كبيرة ومتفرقة أو صغيرة متقاربة، وهكذا كانت الدمامل الأولى تعتبر إشارة الموت الوشيك. (٩٨)

رابعاً: طرق العلاج:

العلاج: فى بداية المرض وبداية ظهور الأعراض:

اعتمد ابن خاتمة فى تعامله مع المرض على الطريقة العلمية فى الطب، التجربة والملاحظة، ثم العلاج. وقد اتبع ابن خاتمة فى علاجه لمرضاه على عدة طرق من أهمها:

فصد الدم (استفراغه):

وقد عمل ابن خاتمة على تقسيم مرحلة العلاج بالنسبة للمرض على مرحلتين، الأولى قبل تمكن المرض من المريض بشكل كامل، وهي ظهور أعراض الحمى عليه، وذكر ابن خاتمة أن حمى الطاعون تختلف عن أى حمى وقال في ذلك "... اعلم أن هذه الحمى الوبائية ليست كغيرها من الحميات.." فكل أنواع الحمى وأجملها فى أربعة أنواع تبدأ حرارتها من مركز انطلاقها فى الجسم، أما فى الحمى الوبئية فإنها تصيب القلب مباشرة فى البداية، ثم تتصل منه بباقى الأعضاء، فرتفع حرارة الجسم، ويرتفع ضغط الدم، ولأن القلب هو الحافظ لأحوال الجسم ".. كما يحفظ الملك مدينته ورب المنزل منزله.." فإذا فسد عضو غيره تولى هو إصلاحه، فإذا فسد القلب، فشل فى نفسه وفى إصلاح غيره، وأن مرض القلب لا يمهل صاحبه، بل يجب علاجه قبل فوات الآوان، ومن هنا نادى بضرورة مداواة عضلة القلب. (٩٩)

ولأن منهج ابن خاتمة كان التجربة والملاحظة، فقد قام بعدد من العمليات العلاجية تبين فاعليتها، فكتب عنها، وأول علاج وصفه ابن خاتمة

مرتبط بالقلب، هو التخلص من ارتفاع ضغط الدم، وزيادته فى الجسم باستفراغه من العروق للتنفيس عن القلب، ومنع انتشار المرض فى الجسم ويقول في ذلك "... تفجير الدم من العروق، وخاصة لأول الشعور بالمرض قبل أن تنتشر الحرارة على البدن وتستحكم الحمى، وتظهر الأعراض الهائلة..."(١٠٠)

وعما يحدثه الفصد أو استخراج الدم من الجسم يقول ابن خاتمة أن ذلك يعمل على شيئين الأول نقص كمية الدم بالقلب والتي كانت عبئاً عليه، والثاني ".. ترويح مجارى الأرواح فى الشرايين باستفراغ الأوردة العائد عليها بتخفيف الدم واستفراغه..." (١٠١)

ما بعد عملية الفصد:

وبعد اتمام عملية الفصد ينصح ابن خاتمة بعدم مخالطة المريض بعدها لمرضى آخرين، لأن ذلك سيؤدى به للهلاك واستحالة شفائه، ولا جدوى من العلاج،لأن التعفن قد استحكم فى بدنه، ومع عدم المخالطة وصف له بعض الأدوية والمشروبات التي تقوى القلب كشرب التفاح والليمون وماء الورد، ويمسح على صدره وجنبيه بماء الورد الممزوج بالخل، ويسقى الحسو الذى طرحت فيه عيون النعنع، ويتناول الرومان الحامض ويمنع عن الطعام حتى تعود له صحته، وإن شكى المريض نفس الأعراض السابقة شريطة عدم المخالطة لمرضى آخرين، يشير ابن خاتمة بتكرار عملية الفصد من نفس مواضعها، ويشير أنه قام بمثل هذا مع مريض له. (١٠٢)

أما عن طريقة الفصد فقد شرحها بدقة بالغة، من حيث أماكن الفصد، وكمية الدم المطلوب استفراغها، فأشار بأن يسقى المريض أوقيتين من شراب السكنجبين (الزنجبيل)وشراب التفاح، ممزوجتين بمثلهما من شراب الورد، ثم يتم تفجير الدم من العروق، حسب موضع تألمه، فإن كان غالب تألمه من رأسه فجر له القيفال، وإن كان مما تحت عنقه فجر له الباسليق، ،إن كان تألمه شاملاً لجسده، فجر له الأكحل(وهي عروق دموية في جسده). (١٠٣)

أما عن كمية الدم فقد أشار ابن خاتمة إلى أنها تستمر في التدفق حتى يغشى على المريض، مع استيفاء كمية الدم ذات اللون الأسود حتى وإن استفرغ كل دم الجسم فهذا لونه، وإذا غشى على المريض قبل إتمام عملية الفصد باستيفاء المطلوب فإنه يرش على وجهه وأطرافه بالماء البارد حتى يفيق، ويستوفى ما يحتاج إليه. (١٠٤)

وعلى الرغم أن ابن خاتمة لم يحدد الكمية المطلوبة وحددها بحسب رؤية المعالج،وقوة وسن المريض نفسه بأن يستوفى الكمية المطلوبة، إلا أنه فى بعض عمليات الفصد التي قام بها، قد استفرغ من مريض اثنين وعشرين أوقية من الدم (١٠٥)، ولهذا يمكن القول أنها قريبة من هذا العدد حسب قوة وسن المريض.

العلاج بعد تمكن المرض واستفحال الأعراض:

أما المرحلة الثانية للعلاج من المرض عند ابن خاتمة فترتبط بتطور الأعراض وتمكن المرض من المريض، ومع أن ابن خاتمة بدأها بقوله"... قليل الجدوى فى الغالب..." ولكنه يذكر أن بعض الحالات التي عالجها به نجحت لذلك وجب عليه تعميمه.(١٠٦)

والغريب أن ابن خاتمة فى معلومة طبية أكثر من رائعة يقول أن ظهور الأعراض سالفة الذكر، وهي أعراض الطواعين إن ظهرت على الشخص، ولكن فى وقت ليس فيه وباء ولا عدوى أى أنه بظهور نفس الأعراض دون وجود وباء، فإن العلاج سهل ومضمون، وعلته فى ذلك عدم فساد القلب، وقدرته على النهوض بباقى الجسم (١٠٧).

وفى ظاهرة طبية كانت هي الأفضل فى تلك الفترة، اعتمد فيها ابن خاتمة على علاج كل نوع من أنواع الطواعين الثلاثة حسب التشخيص، وقد أفرد لكل حالة علاجها حسب التشخيص، فالطاعون الدملى عنده له علاج، والطاعون الرئوي له علاج، والطاعون القرحي له علاج.

أما عن علاج النوع الأول وهو الطاعون المصحوب بأورام (الليمفاوى أو الدبلى)،فإذا مر عليه يومين فأقل من مرضه، ينظر إليه، إذا كان المريض عروقه دارة، ونبضه ممتلىء، وفى وجهه حمرة، وليس عنده إسهال أو قىء مرارى، يتم فصد الدم ولكن بكميات ليست كبيرة، وحسب سنه وقوته ويكون تفجيره من المكان المناسب لموضع الألم والجهة المقابلة له، ويحذر فى صفد هذا المريض بالطاعون الليمفاوى أو الدبلى أن يغشى عليه أثناء الفصد، وقبل الفصد يسقى ترياق عبارة عن شراب التفاح الممزوج بشراب السكنجبين ورب الحصرم أو شرابه أو شراب الليم وحامض الأترج مذوبا بماء الورد الممسك.، وبعد الفصد يسقى مما سبق من ترياق. (١٠٨).

أما إذا كان قد مر عليه أكثر من يومين، وظهرت أعراض العفن فيه، ففى هذه الحالة إذا تم صفده يموت، لأن فى هذا تعجيل بوفاته، ويختلف فى هذه الحالة نوع الترياق الذى سيسقى له مع التركيز على تفريغ معدته بإعطائه الملينات مع المسكنات للمرض، مع اختلافها حسب حالة وأعراض المريض، وأمراضه التي كان يعانى منها قبل مرضه بالطاعون (١٠٩).

وإذا تطورت الحالة وتقىء المريض يعطى الماء الساخن لتفريغ معدته، وإذا كان قىء مرارى تغير الترياق بخلط الماء الساخن بشراب السكنجبين، فإذا فرغت المعدة يسقى نوع آخر من الترياق ، وإذا أصيب بإسهال بعد هذا العلاج، فيجب مداواته لوقف الإسهال بعد تنظيف معدته، بعدة وصفات أخرى. (١١٠)

وإذا لم يتم شفاؤه وتطورت حالته وعانى المريض من شدة الألم، وغالباً يكون بدءاً من اليوم الثالث، فيجب وصف أدوية تكون أقل حدة على المريض كالمسكنات حتى لا تلتهب مواضع الورم بالأدوية القوية، وترتفع الحرارة، فيهلك المريض.، وهناك أنواع متعددة من الترياق وصفها ابن خاتمة، علاوة على بعض الوصفات التي هي فى شكل دهانات توضع فى خرقة وتربط بها الأماكن الملتهبة التي هي نواة للتورم بعد ذلك، تمهيداً لصرف الورم فى بدايته، وهو يتم فى حالات كثيرة عالجها بنفسه، وانصرف الورم البسيط، وإن لم

ينصرف الورم تغيرت الوصفة بأنواع أخرى من الدهانات والترياقات.[١١١]

وإذا تجاوز المريض اليوم الرابع منتهي المرض، فإما إلى سلامة من المرض أو إلى التطور والاتجاه للهلاك، فتزداد الأعراض ويشتد المرض، ويصعب صرف التورمات البسيطة، وتبدأ فى زيادة الحجم، وأصبح صرفها أمراً مستحيلاً، يبدأ ابن خاتمة فى اتجاه آخر وهو اتجاه لتحويلها إلى مرحلة النضج حتى تخرج ما فيها بنفسها، دون تدخل، ووصف لذلك عدة خلطات فى شكل مراهم تساعد فى نضج الورم، وإخراج ما فيه. وقد حدث ذلك فى حالات عالجها وأخرجت الأورام ما فيها من دمامل بعد نضجها، وغالباً ما يكون ذلك فى بداية اليوم السابع. .[١١٢]

وإذا لم تخرج ما فيها، وطلت على وضعها ومر الأسبوع فلابد من تفجيرها بالحديد لتخرج ما فيها، لأن وجودها بالجسم أمر فى غاية الخطورة، والأمان للمريض أن تخرج هذه الدمامل من الجسم،وتوضع عليها المسكنات والمبردات، وعالج بنفس الطريقة عدد من المرضى وتم شفاؤهم.[١١٣]

وفى بعض الحالات ينحصر الورم وما به من مواد (دمامل) ولا يظهر لها نضج أى انها لن تخرج دون تدخل، وبخاصة فى البدان النحلة، فيرى ابن خاتمة أنه وجب تفجيرها بتدخل من غير انتظار أن تنضج هي، وإن تجاوز زمن النضج ومضى سبعة أيام، وفى تركها دون تفجير ضرر للمريض، وقد تنفجر بالدواء دون تدخل. [١١٤]

وقد لخص ابن خاتمة عملية تفجير الدمامل ومرحلة تفجيرها بتعدد الحالات، حيث فى بعض الحالات قد تتحلل وحدها دون تفجير بسبب كثيرة ما بها من دمامل، وقد تنفجر بالعلاج، ويرى أنه لا يجب تفجيرها بالحديد إلا بعد ظهور النضج عليها، أو مضى زمانه، حتى لا يهلك العليل، فهذه المادة قد تصل للقلب عن طريق الدماء فى حالة تفجيرها قبل نضجها، أى أنه بدلاً من خروجها من الجسم للخارج تنتشر فى الجسم وتصل للقلب عن طريق الدم، وضرب ابن خاتمة الأمثلة على تفجير بعض الأورام تحت الإبط قبل نضجها

على يد الحجامين وموت المرضى على الفور، وكذلك الحال فى أورام الفخذين، ماتت حالات بتفجيرها قبل النضج [١١٥].

أما عن غذاء المريض بهذا النوع من الطاعون الدبلى فقد أشار ابن خاتمة أن طعامه يجب أن يتناسب مع حالته ومع الدواء الذى يتناوله، وطريقة علاجه، وإن كان يرى أن العلاج بالترياق قد يكون بديلاً للغذاء وهذا أفضل للمريض، لأن هذا المرض من أعراضه اضطراب الشهية، وتجعله يطلب الطعام بحرص، مع أنه لا يتناول منه إلا القليل،، ويفسر ذلك باضطراب فم المعدة بين القبول والرفض. [١١٦].

أما عن نوعية الغذاء الذى وصفه ابن خاتمة للمريض فيتطور بتطور المرض، ففى بداية المرض غذاء حسو الفتيت لين الطبخ، وكشك الشعير المحكم العمل، وطبخ الأرز الرقيق ولباب خبز البر المختمر، فإن طلب الطعام زيادة تناول القرع والخس والعدس وسائر البقول المسلوقة، والفاكهة رمان، وتفاح مر، وقصب السكر. [١١٧]

أما النوع الثاني من الطاعون وهو الطاعون الرئوي، فيرى ابن خاتمة أن الشفاء من هذا المرض شىء ميئوس منه، ولم يشف منه حسب ذكره هو سوى شاب واحد فقط عالجه، ولا زال يتعجب منه ابن خاتمة، حيث يذكر أنه نفث له الدم فى يوم المرض الثاني، فصفده مرتين فى يومين متتاليين، فاتسع نفسه وأفاق، وتماثل للشفاء بعد ثلاثة أسابيع. [١١٨] وربما كان ذلك لباكورة العلاج حيث ذكر أنه كان فى اليوم الثاني، وربما كان لمناعة جسمه أو لقوة بدنه.

وعدم الشفاء من الالتهاب الرئوي عند ابن خاتمة مرجعه إلى أن الدم المنفوث يكون ناتجاً عن تفجر عروق الرئة وتهتكها لحدة الدم المنبعث إليها، وعجزها عن حصره. [١١٩]

وحسب روايته فإن الكثير من المرضى لا يذكر من مرضهم سوى نفث الدم من غير أعراض أخرى أو حمى ، ولا يصبحون إلا وقد هلكوا، ونفثهم

هواء أسود يكون بسبب موت الدم فى الرئة، ثم يصير هواء نتن لشدة التعفن بالرئة، ولم يحسوا بوجع لقلة حس لحم الرئة. (١٢٠)

أما علاج الصنف الثالث وهو الطاعون القرحى (المصحوب بقروح سوداء)،فهذا النوع من الطواعين عبارة عن ظهور نفاخات سوداء أو ضاربة إلى الحمرة، عبارة عن نار فى الجسد، مصحوبة بالتهابات وارتفاع شديد فى درجات الحرارة، ثم تنفجر هذه الانتفاخات وتخلفها نكت سوداء تتبع ماء، مع تورم المواضح حولها. وفى بعض الحالات تظهر محددة كحبوب الذرة سوداء أو حمرة، ثم تتقرح. (١٢١)وعلاج هذا النوع حسبما ذكر ابن خاتمة فى التخفيف من حدة هذه القروح السوداء، بأن تفتح وتسكن لأول ظهورها.

وعن طريقة ومراحل الفتح ذكر ابن خاتمة أن الفتح يسبقه خطوة حيث تغمس صوفة فى دهن البابونج مع خلطه بوصفة سماها (القيروطى) عبارة عن جزء من دهن البنفسج، وربع جزء من الشمع الأبيض، ويغلى الجميع على النار حتى الذوبان، ويطفىء فى الماء والخل، أو ماء الورد والخل، ثم يعاد للنار، ويطفىء بنفس الطريقة مرتين وثلاث ويمسح بها على الموضع، وحوله مرة بعد مرة حتى جف ولا يتورم أكثر، والمرحلة التالية هي أن القروح تنضج تمهيداً لفتحها بعد مرور أسبوع فى الغالب، فتعلق بالصنانير وتقطع، وهو أسرع برأ وأقل غائلة. (١٢٢)

أما إن لم يكتمل نضج القروح فقد زاد ابن خاتمة فى علاجها بمراهم أخرى من شحم كلى وشحم دجاج من كل صنف نصف أوقية، وحلبة أوقية، ويخلط ويدهن به القروح حتى تنضج وتنفجر وحدها وتنظف بالحديد إذا لزم الأمر (١٢٣).

وانشغل ابن خاتمة كثيراً بمسألة الوقاية من المرض، أكثر من انشغاله بالعلاج، فقد أوصى بالحرص فى البعد عن المرض بقوله"... يحترز بمقدار ما فى طوق الإنسان أن يحترز..." ، ".... كيف يكون تحفظ الإنسان فى جميع أموره من هذا الحادث مهما ألم بجهته حتى يبعد عن الاستعداد له بقدر وسعه،

وذلك على ما أعطته التجربة وشهد على الاعتبار بطول المدة التي استمر فيها هذا الحادث بالمرية..." (١٢٤)

وقد نصح بعدد من النصائح على المرء اتباعها حرصاً منه بالسلامة من العدوى والمرض منها إصلاح الهواء بشم الرياحين والتدخين بالصندل والعود، الحركة والسكون فهو ينصح بالسكون حتى لا يتعرض إلى استنشاق الهواء المتغير، وإن احتاج إلى حركة فلتكن معتدلة، وأوصى بعدم السفر. كما أوصى بالاعتدال فى الأكل دون إفراط و تفريط وأوصى بأكل الغلال وتحاشى شرب النبيذ والحليب والماء الفاسد. وأوصى بالنوم فى القيلولة فى فصل الصيف، واختيار الأماكن الشمالية الباردة فى الصيف والعكس فى الشتاء' وأوصى بالاسترجاع بالفصد والحجامة مرة فى الشهر، نصح بتحسن الحالة النفسية بالتعرض للمسرات والأفراح وبسط النفس وإنشراح الصدر وامتداد الآمال. (١٢٥)

طرق علاج المرض عند الأوربيين:

ظاهرة ربما على مر العصور، وتاريخ الأوبئة عبر التاريخ أن الأطباء أحياناً يقفوا عاجزين أمام الوباء على الأقل فى بداياته الأولى، ثم إذا ما نجحوا فى التشخيص السليم للمرض من خلال أعراضه، يبدأوا فى التفكير فى التوصل لعلاج أو على الأقل العمل على وقف العدوى وانتقالها من مكان لمكان، لوقف الزيادة فى أعداد الوفيات.

وقد يرى البعض أن أطباء أوروبا فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي، قد واجهوا الطاعون الأسود حسب إمكاناتهم العلمية، ومدى إلمامهم بالمرض الجديد الذى حل بأرضهم، وبقدر معرفتهم فى التوصل لتشخيص المرض، ورصدهم له، بقدر ما يمكن التوصل للعلاج السليم،أو على الأقل وقف العدوى.

والمجال هنا ليس في تقييم الأطباء الأوربيين فى تلك الفترة من الناحية الطبية،وإنما المجال لرصد طرق تعاملهم مع المرض، مقارنةً بما تم عرضه

سلفاً من طرق العلاج عند الأطباء المسلمين فى بلاد الأندلس، ووهل استفاد الأوربيون فى تلك الفترة بما توصل إليه الأطباء الأندلسيون ؟ وهل ساهم أطباء الأندلس فى ترسيخ قواعد طبية للتغلب على الطواعين بعد ذلك ؟

وبالتدقيق فى الروايات المعاصرة للأحداث يجب الوقوف أولاً عند أساتذة كليات الطب، وكيف واجهوا المرض، قبل التطرق لمجهودات غيرهم من الأطباء، ثم التطرق لروايات أخرى معاصرة. فعلى المستوى الرسمي ففى الوثيقة التي وضعها منتسبو كلية الطب فى باريس بخصوص هذا المرض، ففى البداية أقروا فى الوثيقة بأن ".... المرض من عند الله، والطاعون هذا جاء بإرادة إلهية، وليس هناك مفر من أن يلجأ المرء إلى الله تعالى لرفع البلاء، ولكن هذا لا يعنى التخلى عن الأطباء، فلنلجأ للأطباء حسب قدرتهم، والله وحده يشفى المريض، أوضحوا فيها عددًا من النصائح التي ينبغى العمل بها للتخلص من هذا المرض، لكنهم ربطوا بين الإجراءات الاحترازية والأسباب، حيث قالوا أن كل التغيرات الناجمة عن الظواهر الطبيعية سوف تنتهي بعد تكوين الضباب النتن بظاهرة المطر، وبمجرد أن يعلن هذا المطر عن نفسه، عن طريق الرعد أو البرد، يجب على كل واحد منكم أن يحمي نفسه من الهواء، وكذلك قبل وبعد المطر،يقوم بإشعال نار كبيرة من خشب الكرمة أو خشب أخضر آخر، يجب أيضًا حرق الشيح والبابونج بكميات كبيرة في الأسواق، وفي مناطق أخرى مكتظة بالسكان، وفي المنازل حتى تجف الأرض مرة أخرى تمامًا. ولمدة ثلاثة أيام بعد ذلك لا يجب أن يسافر أحد إلى الخارج في الحقول خلال هذا الوقت، ويجب أن يكون النظام الغذائي بسيط، ويجب أن يكون الناس حذرين في تجنب التعرض لبرودة المساء والليل والصباح بشكل عام، يجب عدم أكل الدواجن والطيور المائية ولحم الخنزير الصغير ولحم البقر القديم واللحوم الدهنية، والنوم في النهار ضار..... يجب على المرء أن يشرب القليل من الماء، ويجب تناول العشاء قبل غروب الشمس بساعة،..... يجب عدم استخدام مياه الأمطار في الطهي، ويجب على كل شخص الحماية من

التعرض للرطوبة. ويجب أن يجلس الناس السمينون تحت أشعة الشمس . يجب اختيار النبيذ الصافي الجيد وشربه كثيرًا، ولكن بكميات صغيرة يوميًا . زيت الزيتون، كمادة غذائية مميت . والاستحمام ضار....." [١٢٦].كما نصحوا باستنزاف الدم من الأوردة التي تصل لمكان الورم حتى يفقد المريض الوعى، القصد منها إزالة الورم[١٢٧].

والأصل في الفصد عند أطباء كلية الطب في باريس أن دورة الهواء في الرئتين هي التي تحدد حرارة الجسم الطبيعية ولكن عندما يهاجم الطاعون الجهاز الرئوي فإن عصارات الجسم تتعطل فالهواء يتوقف عن الدوران ويموت الضحية في النهاية ولأن القلب يشغل المركز الأهم من حيث ‘صارات الجسم تتدفق إليه ولذلك فإحدى طرق التعامل مع الطاعون هي إدماء الأوردى القريبة من القلب، فإذا ظهرت الدمامل على مقربة من أعضاء أخرى كالكبد أو الطحال فإن الأوردة الواصلة إليها تدمى.

ودافع المؤرخ هيكر، باستماتة عن دور أطباء كلية الطب فى باريس،وعجزها من وجهة نظر البعض عن مواجهة الطاعون، ويرى أن الكلية وجدت نفسها أمام وباء فرض عليها مكافحته رغم قلة الإمكانات. [١٢٨] على الرغم من أن الرأي العام وقتها، حتى رأى الملك فيليب الثالث نفسه أن الرأي الذى أتاه من كلية الطب بباريس جاء على غير فائدة. [١٢٩]

وفي وثيقة الطبيب الإيطالى فولينيو عدد من النصائح الخاصة بمكافحة الطاعون الأسود ومما جاء فيها "... يجب على الرجال تناول الطعام والشراب بشكل مناسب، ويجب أن يفهموا الطعام والشراب الجيد، الذي اعتاد عليه الرجال بشكل عام، ولكن يجب تجنب الأسماك، لأنه بدون حساب يجب أن يستهلكها الرجال... نوصي بتناول اللحم الجيد بما في ذلك الدجاج.... ومن لحوم البقر، الأبقار المرضعة والماعز والعجول، وكذلك لحم الخنزير..... ونوصي بالخبز... واختيار النبيذ..... ويوصى دائمًا بفطر الصنوبر بخصائصه العلاجية..... من المستحسن أن يستهلك الفقراء الكراث

أو الماء المقدس والبصل الأخضر .... وأيضا للأغنياء. وبالنسبة لفعالية العلاج ، لا نضمنها..... ويوصى بحرق النباتات العطرية في المنازل والأماكن حيث يعيش الناس...، ويجب أن يكون المنزل والمدينة تم تطهيرها من البراز ....."[١٣٠].

كما أوصى كذلك بعملية الصفد وهي استنزاف الدم من أوردة المريض التي تصل لمكان الورم، وذكر أماكنها بقوله"... إذا كان التورم فى العنق أو الرأس، يتم فتح الوريد الرأسى فى الإبهامين على التوالى، وإذا كان تحت الإبط أو فى الزراع الأيمن، فافتح الوريد الرئوي الذى يمكن أن تجده فى إصبع الوسطى والبنصر فى اليد اليمنى. [١٣١]

أما الرواية الطبية الثالثة الشاهدة على الطاعون الأسود والتي كان بطلها طبيب مشهور جداً فى القرن الرابع عشر هو الطبيب جي دي شولياك، مؤلف كتاب الجراحة ، الذى فشل هو الآخر فى تشخيص المرض أو البحث عن علاج له، فالطبيب لا يجرؤ على زيارة المريض خوفاً من انتقال العدوى له، وتحول الطب أمام هذا المرض هو والأطباء لشيء عديم الفائدة، وأضحى الأطباء يستحيون من الناس،حتى من تمكن منهم من الذهاب للمريض لم يقدم له شيء، كانت زيارة بلا فائدة، الطبيب كغيره من الناس، وخلاصة القول طب بلا فائدة. [١٣٢]

إلا أن الطبيب شولياك نفسه الذى أقر بفشل الطب فى أوروبا أمام الطاعون، كانت له وجهة نظر فى العلاج، وقال أن العلاج ينقسم إلى خطوتين مهمتين، الأولى هي البعد عن العدوى بالفرار أمامها، والبعد عن المدن المصابة، ويطهر نفسه بحبوب الصبار... وتنقية الهواء بالنار،...، ويأكل فاكهة ويشتم رائحة طيبة ،...أما العلاج بالنسبة للمصاب، هناك بعض العلاجات المسكنة... وينصح بأكل التين والبصل بعد طهيهما وطحنهما وخلطهما بعجين الخبز،... القرح والدمامل تفتح للتنفيس وتكوى...."[١٣٣].

وفى اعتراف منه أكد الطبيب الفرنسى شولياك أنه لم يجرؤ على

الخروج من مدينة أفينيون المصابة وظل بها، حتى لا يصاب بسمعة سيئة كغيره من الأطباء الفارين، ولكن كان الخوف يسيطر عليه، ".. لكنى فى النهاية أصيبت بالحمى لمدة ستة أسابيع، وظن الجميع أنى سأموت، لكنى شفيت فى النهاية..". (١٣٤)

ومع أن الطبيب شولياك ذكر بنفسه أن الطب قد عجز فى تلك الآونة فى مواجهة المرض،إلا أن المؤرخ هيكر لا يستبعد أن يكون هو من قدم النصيحة للبابا كليمنت السادس بضرورة العيش فى عزلة حتى لا يصاب بالمرض لأن الحفاظ على حياة البابا شىء مهم (١٣٥)ونصح البابا أنوسنت السادس بترك أفينيون والبعد عنها، فاتجه للعيش فى فالنسيا Valnce، ثم عاد إليها بعد أن هدأ الطاعون. (١٣٦)

وخلاصة القول أن الأطباء فى أوروبا ومعهم فئة كبيرة من المثقفين كانوا على قناعة تامة بأن النجوم هي التي تسببت فى هذه الكارثة، ولا توجد فى أوربا رواية حددت السبب فى الطاعون حتى أوائل القرن العشرين، ولا أحد من المعاصرين من أطباء أوربا ربط بين الطاعون، واكتظاظ دماء القوارض الميتة السابق للوباء (١٣٧)

وتعتبر رواية المؤرخ والأديب الإيطالى جيوفانى بوكاتشو **Giovanni Boccaccio** المعاصر للطاعون وطريقة مواجهته فى أوروبا من أهم الروايات التي ناقشت طرق العلاج المتبعة فى تلك الفترة، فيذكر أن الطب فى غرب ووسط أوربا وقف عاجزًا، فأصبح أمام هذا المرض لا قيمة له، فنصيحة الأطباء لا تأتى بفائدة، كما أن التفاوت فى روايات الأطباء عن المرض كان السمة الغالبة، وقالوا جميعاً أن طبيعة المرض لا تسمح بأى علاج، ومع ازدياد أعداد المرضى، وعدم قدرة الأطباء على مواجهته، تفشى المرض. (١٣٨)

ولا يمكن تجاهل رأي بوكاتشيو فى هذا الأمر، وهو رأي أقرب للصواب، وهو أننا كيف نطلب من الأطباء أن يعالجوا المرض، وهم لا يعرفون أسبابه، وبالتالى يفشلون فى تشخيصه، ومن هنا انتقلنا لمرحلة يمكن تسميتها

بمرحلة الاجتهاد حيث أن أناساً غير مؤهلين طبياً أو حتى متدربين لمزاولة الطب يشاركون فى عمليات العلاج، لكن دون جدوى. (١٣٩)

ويذكر بوكاتشيو أن فشل الأطباء على النحو سالف الذكر جعل الناس يلجأون للدجالين الذين نشطوا خلال تلك الفترة ، ولأن المرض كان مبهماً كان هذا سلوك الكثير من الناس، فتكسب الدجالون الكثير. (١٤٠)

وأكد شاهد عيان آخر على ما ذكره بوكاتشيو وهو الأديب سانكتوس الذى ذكر أن أغلب الأطباء فى مدينة أفينيون كانوا قد رفضوا التوجه لعلاج المرضى، حتى وإن عرض عليهم مبالغ كبيرة من الأثرياء، فقد كانوا يرفضون.(١٤١)

ويذكر المؤرخ هيكر Hecker أن بعض المعاصرين للمرض رصدوا تعافى بعض الحالات المصابة ، خلافاً للتوقعات بموتهم، مع أن أعراض المرض قد ظهرت عليهم، ولكن لا يعرف سبب تعافيهم (١٤٢).

إلا أنه ذكر أن الطب لم يكن مجدياً أمام هذا المرض، فلم يتمكن الأطباء فى أوروبا من تقديم أى شىء للمرضى، بل اكتفى الشجعان منهم بعمل التقارير عن المرض فقط، بينما من لم يتمتع أحد بالجرأة منهم، وأحس بالخطر يداهمه، فر من الميدان، وهرب أمام انتشار المرض، فقد تم رصد فرار عدد كبير من الأطباء أمام المرض من المدن المصابة لمدن أخرى، وقد برروا لأنفسهم ذلك بأن وجودهم لم يكن مجدياً فهم لم يتمكنوا من التشخيص السليم حتى يتوصلوا للعلاج، كما أن وجودهم فى المدن المصابة يعرض حياتهم للخطر، ففى تلك الفترة لم يجرؤ الكثير من الأطباء أو حتى المساعدين من الاقتراب من المرضى.(١٤٣)

كما تؤكد تلك الرواية ما ذكره المؤرخ الإيطالى المعاصر للطاعون الأسود ماتيو فيلانى Matteo Villani (١٢٨٣-١٣٦٣م)، الذى كتب فى حولياته أننا نشتكى من كل أطباء العالم فى مواجهة الطاعون الأسود، فمن

المعروف أنه لم يكن لهم أى دور أو قدموا لنا العلاج الفعال، سواء من خلال الفلسفة الطبيعية، أو الطب،أو حتى فن التنجيم، ويؤخذ على بعضهم محاولة التكسب من المرض، فقد ذهبوا لمرضاهم، ووصفوا لهم بعض العلاجات، التي ظهر بعد ذلك أنها كانت هراءات كاذبة. (١٤٤)

ومع كل ما سبق فلا يمكن أن ننسى أبداً أنه كانت هناك أمثلة للأطباء مشرفة إلى حد كبير، وعلى رأسهم الطبيبين جينتا دا فولينيو Gentile da Foligno و جى دى شولياك، الذين أصيبوا بالمرض وهم يمارسون عملهم فى مكافحته، فمات أحدهم وهو فولينيو وتعافى شولياك(١٤٥).

ويتضح مما سبق أن خلاصة ما تم تقديمه من محاولات للعلاج فى الغرب الأوربى كانت عبارة عن حقل تجارب للبحث عن العلاج، وبخاصة أنهم لا يجدون من يصف لهم العلاج للخلاص من المرض. حتى المحاولات التي تم رصدها لوصف الدواء جاءت كلها محاولات شخصية أو مقتبسة من الشرق العربى، ويرجع ذلك لعدة اعتبارات منها أن معظم المعاصرين من أبناء الغرب الأوروبى قد اقتنعوا برأي جالينيوس بأن هذا المرض ليس له دواء، وأن أى أبحاث أخرى لم تعد ضرورية، كما أن الطب كان قد خضع فى تلك الآونة لإشراف الكتيسة وبما يتفق فى أهدافها ولخدمة الأغراض الدينية، وغالباً ما جاءت معلومات الطب مجرد قراءات فقط من خلال الترجمات. (١٤٦)

خلاصة القول فإن التميز فى التعامل مع مرض الطاعون الأسود كان لصالح الطبيب ابن خاتمة، ولا شك أن حركة الترجمة التي تبنتها مملكتى قشتالة وأراجون للتراث الإسلامى الذى تم العثور عليه فى المدن الإسلامية التي اجتاحوها وضموها لحكمهم، قد ساعدت كثيراً فى نقل العلوم والمعارف الإسلامية من العربية إلى اللاتينية ولغات أخرى، ومن هنا نجحت أوروبا منذ أواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادي- عندما ظهر الطاعون فى أوروبا مرة أخرى – فى التعامل مع الأوبئة والطواعين بشكل علمى على نهج ابن خاتمة من تجميع المصابين، والعمل على عزلهم، ومنع أسواق بيع

الملابس المستعملة من مزاولة نشاطها وقت الطاعون لمنع انتقال العدوى، ووضع علامات مميزة لمنازل المصابين لرشها للتعقيم بالكبريت، والعمل على زيادة عدد المستشفيات للعلاج. (١٤٧)

وهو ما أكده المؤرخ أمريكو كاسترو أحين قال: إنه عندما ظهرت أعراض لمرض الطاعون مرة أخرى فى أوروبا عام ٨٧٤هـ / ١٤٨٢م لم يكن هناك مجال للاجتهادات، وإنما اطلع أحد الأطباء الأوربيين على ما كتبه الطبيب المسلم ابن خاتمة عن المرض، ووضع كتابًا فى الطاعون،استخلص منه كتابات وأراء ابن خاتمة الأنصاري (١٤٨).

الخاتمة

توصل الباحث من خلال دراسة هذا الموضوع لعدة نتائج مهمة منها:

- كان الطاعون الأسود بمثابة كارثة حقيقية حلت بالعالم شرقه وغربه، أثرت بشكل مباشر فى المجتمعات بشتى الصور،السياسية، والديموجرافية، والاقتصادية، وحتى الدينية، وعانت مجتمعات عديده من آثاره فى نفوسهم واقتصادهم لسنوات طويلة.
- اختلفت كتابات الأطباء الأندلسيين عن غيرهم، ففى الوقت التي أتت فيه كتاباتهم أكثر موضوعية من الناحية الطبية، اتجه الكتاب المشارقة إلى التحليل والتفسير الدينى، وتناولوا الطاعون من الناحية الفقهية مع السرد لتجارب طبية سابقة،إلا أن الجانب الفقهي طغى على الأسباب والحلول.
- كما اتضح للباحث من خلال ما تقدم أن كتابات الطبيب الأندلسي ابن خاتمة، جاءت عن الطاعون أكثر موضوعية فى مجملها، فقد كانت رسالته فى الطاعون، أكثر شمولية عن غيرها، وجاءت متناولة التعريف بالمرض، وتناولت أهم أسبابه البعيدة والقريبة، وأهم أعراضه وفرقت بين أشكال الطاعون الثلاثة، ووصف العلاج المناسب.
- تجلت قوة رسالة ابن خاتمة فى الطريقة العلمية التي اتبعها فى رصد ما

يتعلق بالطاعون، فقد اتبع الطريقة الطبية السليمة، وهي طريقة الطب بالملاحظة،والتتبع، والرصد السليم لتطورات الحالة المرضية، والمرض نفسه على حد سواء، وذلك بخضوع المريض تحت الملاحظة لفترة، ثم الانتقال لمرحلة أخرى وهي الاستنتاج، ووصف العلاج.

- لو لم ينجح ابن خاتمة فى التشخيص السليم للمرض، وبيان أسبابه، لما توصل للعلاج السليم، وهو ما ميزه عن غيره من معاصريه.
- يمكن القول أن ابن خاتمة سبق عصره بقرون فى عملية الطب بالملاحظة، وكذلك فيما يتعلق بنظرية العدوى وانتقال المرض من شخص لآخر، وكذلك فى مسألة الطب الوقائى، فقد كان له السبق فى اتباع طرق الوقاية السليمة من المرض .
- ساعد التراث الإسلامى الطبي المتمثل فى كتابات الأطباء المسلمين الذين سبقوا ابن خاتمة بالكتابة عن الطاعون والعدوى، كثيراً فى سرعة إدراكه لمرض الطاعون ومسبباته، وطريقة علاجه.
- انقسمت الآراء فيما يتعلق بالجانب الأوربى فى تعامله مع مرض الطاعون بين مدافع عنهم ومهاجم لهم، فالبعض اتهمهم بالتقصير سواء كليات الطب أو الأطباء المعاصرين للمرض، لكن فى النهاية يمكن القول أن الإمكانات المعرفية لديهم كانت تفتقد إلى التراث الطبي وكتابات طبية سابقة ترشدهم على الأقل على التعرف على المرض وعدواه، وطريقة علاجه، فجاءت كتاباتهم فى شكل اجتهادات طبية من مؤسسات وأفراد.
- ابتعدت ارواية الطبية الأوربية مؤسسات وأفراد كثيراً عن الأسباب الحقيقية للمرض، وعن التشخيص السليم له على عكس ما توصل إليه ابن خاتمة، وهو ما جعلهم يبتعدون كثيراً عن التوصيف السليم للمرض، وبالتالى البعد عن طرق علاجه بشكل سليم.
- تأخر تشخيص الأوربيين لمرض الطاعون الأسود وأسبابه حتى اواخر

القرن التاسع عشر الميلادي، عندما بدأت موجة جديدة من الطاعون تضرب العالم، وبدأ البحث هنا وهناك عن الأسباب والتشخيص السليم، ووقتها فقط بدأوا فى إدراك أسباب طاعون القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي، وطريقة نقل العدوى، والوقوف على التشخيص السليم له، ولا شك أن حركة النقل والترجمة للتراث الطبي الإسلامى ساعدتهم كثيراً فى ذلك.

الهوامش:

(١) من المؤلفات المشرقية عن الطاعون(النبا عن الوبا)، لزين الدين بن الوردى (ت ٧٤٩هـ /١٣٤٨م) الذي توفى بالطاعون وقد وضع فيه مؤلفاً أسماه النبا عن الوبا، تحقيق رائد عبد الرحيم، مجلة جامعة النجاح، فلسطين، مجلد ٢٤، ٢٠١٠م وشهاب الدين أحمد بن أبى بكر بن أبى حجلة التلمسانى (ت ٧٧٦هـ /١٣٧٤م)، (دفع النقمة في الصلاة علي نبى الرحمة)، مخطوط بمكتبة الاسكوريال ومخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس . وابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) (بذل الماعون في فوائد الطاعون)، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض (د.ت). وذكر الوباء والطاعون لأبى مظفر السرمرى الدمشقى الحنبلى (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، تحقيق شوكت رفقى شوكت، الدار الأثرية، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ وجلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ:(ما رواه الواعون في أخبار الطاعون)، تحقيق محمد علي الباز، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م. وتغلب علي هذه المؤلفات الجانب الفقهي قبل أن يكون في الجانب الطبي،فقد تناولت التعريف به، والأحاديث النبوية المتعلقة بالموضوع، والفرار من الوباء، والدعاء برفعه، والفقه في هذه المؤلفات مقدماً علي الطب.

(٢) أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري يكنى أبو جعفر، ولد فى مدينة المرية عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م، تعلم الأدب والطب فكان أديبًا وكاتبًا وبارعًا فى الطب وعلومه. تتلمذ علي يد عدد من أشهر علماء المرية، وغيرهم من علماء الأندلس المشهورين ومنهم محمد بن جابر الوادى آشى، وأبو البركات بن الحاج، والفقيه البلفيقى، كان من بين المناصب الإدارية التى تولاها بفضل براعته فى اللغة والأدب نثراً وشعراً، خطة عقد الشروط، وخطة الكتابة عن بعض الولاة، وعمل بالتدريس والإمامة فى المرية، ومارس بها مهنة الطب وكان من أطبائها المشهورين، ويحسب له علاج أهل بلده ونصحهم زمن الطاعون الأسود، كما استدعاه السلطان الغرناطى أبو الحجاج يوسف الأول(٧٣٣-٧٥٥هـ /١٣٣٢-١٣٥٤م) لمداواته. وألف كتاب " تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد" فى عام ٧٤٩هـ /١٣٤٨م، و توفى عام ٧٧٠ هـ /١٣٦٩م. عنه انظر: ابن الخطيب:الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، مكتبة

الخانجي،القاهرة، ١٩٧٤م، جـ ١، ص ٢٣٩-٢٥٩، ج٣، ص ١٧٧-١٧٩ ؛ ابن الأحمر: أعلام المغرب والأندلس – تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٧٥ – ١٧٦ ؛ المقرى: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب – تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨م، جـ ٣، ص ص ٣٤-٣٨ ؛ أزهار الرياض فى أخبار عياض، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، الرباط، ١٩٨٠م، ج١، ص ٨٥؛

(٣) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م،المجلد الرابع، ص ١٨٠.

(٤) ابن خاتمة الأنصارى: تحصيل غرض القاصد، منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية، تحقيق محمد حسن ، المجمع التونسى للعلوم والفنون والآداب، (بيت الحكمة)، تونس، ٢٠١٣م، ص ١٢٧.

(٥) ابن منظور: لسان العرب، المجلد الأول، ص ١٨٩-١٩٠

(٦) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٩م، ج٣، ص ١٢٠١.

(٧) ابن خاتمة: تحصيل غرض القاصد، ١٢٧.

(٨) ابن خاتمة: المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٩) ابن خاتمة: تحصيل غرض القاصد،ص ١٢٩ .

(١٠) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(١١) أحمد السعداوى: المغرب الإسلامى فى مواجهة الطاعون (الطاعون الأعظم والطواعين التى تلته) القرنين ٨-٩هـ /١٤-١٥م، بحث منشور باللغة العربية في مجلة Revue De l'Institut Des Belles-Lettres Arabes, IBLA,1995,1,t.58,p.130.

(١٢) ابن خاتمة: تحصيل غرض القاصد، ص ١٣٠

(١٣) سانشت فرانشيسكو فرانكو: تطور الطب في الأندلس ترجمة جمعه شيحة، الشاذلى النفطى، المجلة العربية للثقافة،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مجلد ١٤، عدد

٢٧،١٩٩٤م، ص ١٨٥-١٩٠؛ أحمد محمد الطوخى: مظاهر الحضارة في الأندلس عصر بنى الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٣٧٢؛ نهاد عباس زينل: الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها علي التطور الحضارى في أوروبا – القرون الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ٢٠١٣م، ص ١٦٩.

(١٤) المرية Almeria: مدينة ساحلية بجنوب شرق الأندلس، وميناء من أهم الموانىء، شيدها الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٦م، اشتهرت فى القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بصناعات عديدة من أهمها المعادن. انظر: الزهرى: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق،مكتبة القافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص١٠١؛ الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ص ١٨٣-١٨٤..

(١٥) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ١٨١.

(١٦) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٨١.

(١٧) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(١٨) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(١٩) الطبيب الفرنسى جى دى شولياك Gui de Chauliac: أحد أشهر أطباء أوربا في القرن الثامن الهجرى /الرابع عشر الميلادي، فقد كان رائدًا في عصره، ولد لأسرة فرنسية متواضعة في المستوى في مدينة أفينيون Auvergne ، كان قد درس الطب في ثلاث جامعات الأولى جامعة تولوز Toulouse ، ثم انتقل للدراسة في جامعة أكثر شهرة هي جامعة مونبلييه Montpellier ثم بولونياBologna . عاش في باريس ثم ليون ، ثم انتقل للعيش في مدينة أفينون حيث يقيم الباباوات. له كتاب مشهور جدا في الطب ألفه حوالى عام ١٣٦٣ م ، بعنوان " مجموعة من الطب الجراحي Inventarium seu Collectorium in parte Cyrurgicali Medicine"، الذي أصبح كتابًا طبيًا يقرأ علي نطاق واسع، وتم تدريسه في أغلب الجامعات الأوربية، وكان الطبيب الخاص لثلاثة من الباباوات هم ، كليمنت السادس (١٣٤٢-١٣٥٢) Clement VI (1342–1352)، والبابا أنوسنت السادس (١٣٥٢-١٣٦٢)

InnocentVI(1352-1362) ، والبابا أوربان الخامس Urban V (1362–1370)، وتوفي في مدينة ليون عام ١٣٦٨م. انظر:

Walsh J.J.: Guy de Chauliac, Old-time makers of medicine, Catholic Churchmen in Science, New York ,2007,p. 282– 285 ; David A. K. Watters: Guy de Chauliac: pre-eminent surgeon of the Middle Ages, ANZ Journal of Surgery · October 2013,p.730-734.

(20) Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, 1347-1353 Canadian Bulletin of Medical History, Volume 25 Issue 2, Fall 2008, p. 461-462.

(21) Guy de Chauliac: La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac, Chirurgien, Maistre en Médecine de l'Université de Montpellier: Composée en l'An 1363, Felix Alcan,Paris , 1890,p.170-171.

ويذكر أنه من بداية انتشار المرض فى أوروبا من عام ١٣٤٧م وحتى عام ١٣٥١م، تراوحت نسبة الوفيات بين سكان أوروبا ثمن إلى ثلثى عدد سكان بعض المدن، وقد ثبت وفاة ثلاثة من كل عشرة من الأوروبيين، وأن إجمالى عدد من ماتوا حوالى ٢٤ مليون نسمة. انظر: شلدون واتس: الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة الإمبريالية، ترجمة أحمد محمود عبد الجواد، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص ٦٥.

وليس ثمة دليل قوى علي كثرة الوفيات فى أوروبا بذلك الوباء من قول المعاصرين أن الجثث كانت تصل بأعداد كبيرة أمام الكنائس كل ساعة، ولم تعد الأرض المقدسة تستوعب هذه الأعداد، وعندما امتلأت المقابر تم حفر خنادق كبيرة فى جميع مقابر الكنائس وألقيت فيها الجثث المتوفاة الجديدة بالمئات، وكسيت بطبقات التراب الواحدة فوق الأخرى، وكشفت الحفريات الأثرية بعد ذلك دفن الألاف فى مقابر جماعية فى طبقات فوق بعضهم البعض. انظر: جوزيف بيرن: الموت الأسود، عمر سعيد الأيوبي، كلمة للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٣م، ص ١٥٦؛ روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، جائحة طبيعية، وبشرية فى عالم = = العصور الوسطي، ترجمة، عبادة كحيلة،المركز القومى للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م، ص ٨٩-٩٠، ٩٥-٩٧.

(22) Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, p.463.

(23) André Burguière: Dictionaire des sciences matiere: peste:par Jean-Noël Biraben , Presses Universitaires de France,Paris,1986,p.505.

(24) John Aberth: The Black Death , The Great Mortality of 1348-1350 abrief history with documents ,(Bedford Series in History and Culture) , Palgrave Macmillan , New York, 2009,P.1-2.

(٢٥)جيوفانى بوكاتشو: الديكاميرون، ترجمة صالح عثمان، دار المدى للثقافة، سوريا، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ٤١-٤٢ .

(26) I. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Century, Translator: B. G. Babington, A. Schloss, Foreign Bookseller, London,1833,p.4-6.

(27) I. F. C. Hecker: Ibid ,p.4.

(28) I. F. C. Hecker:: Ibid,p.4-5.

(٢٩) الطاعون الدبلى: أول أنواع الطواعين وأصله جرثومة طاعونية فى أمعاء المريض تعرف باسم الجرثومة اليرسينية نسبة إلى مكتشفها يرسين Yersin، وتنتقل للضحايا عندما يخترق البرغوث الجلد ويفرغ مجموعة الجراثيم فى دم الإنسان، ويعيش البرغوث فى فروة رأس الفأر الأسود، وعندما تصاب الفئران وتموت تسعى البراغيث لعائل جديد، وتنتقل للإنسان وتسمم الدم وتحدث حمى وعندما يتصدى الجسم للجراثيم فتتجمع الجراثيم والمادة التى تكونت فى مجرى الدم عند تصدى الجسم للجراثيم فى الغدد اللمفوية الموجودة فى أعلي الفخذين، وتحت الإبطين،أو خلف الأذنين، وبالتالى تتورم هذه المناطق فتأخذ شكل الكتل أو الأدبال، لذلك سمى بالطاعون الدبلى، وعقب ذلك يصاب المريض بحمى يصاحبها هذيان، وضعف وفقد للشهية، وتتوقف الأعضاء عن العمل ويتوفى المريض من ٧-١٠أيام ، ولا ينقل مرضى الطاعون الدبلى المرض مباشرة.

انظر: جوزيف بيرن: الموت الأسود، ص ٢٢-٢٣؛ روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، ص ٩٨-٩٩.

(30) Norman F. Cantor, In the Wake of the Plague: The Black Death and the World It Made , Free Press, New York, 2001, 14-15; John Aberth: The Black Death ,p.23.

(31) Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman,p.462-463..

(32) Norman F. Cantor, In the Wake of the Plague: The Black Death and the World I, 14-15; John Aberth: The Black Death ,p.23; Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman,p.463.

(33) Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman,p.463.

(٣٤) شلدون واتس: الأوبئة والتاريخ، ص ٧٢؛ علي السيد علي: الفناء الكبير والموت الأسود فى القرن الرابع عشر الميلادي دراسة مقارنة بين الشرق والغرب، المجلة التاريخية المصرية، مج ٣٣، ١٩٨٦م، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣٥) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ١٤٣. وقد أورد مؤرخو المشرق أن بداية المرض كانت من تلك النواحى، وإذا كان ابن خاتمة قد نقل عن التجار النصارى المكان الذي بدأ فيه المرض، فإن الكثير من المؤرخين فى المشرق كانوا قد ذكروا بدايته فى بحر الظلمات دون تحديد المكان. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج ٤، ص ٨١؛ ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبار البشر، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٩م، ج٢، ص ٣٥٦

(٣٦) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ١٤٣- ١٤٤.

(٣٧) أحمد السعداوى: المغرب الإسلامى فى مواجهة الطاعون، ص ١٢٨.

(٣٨) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ١٤٥.

(٣٩) في زمن الطاعون الأسود كانت كلية الطب في باريس هي الأرفع مكانة في أوروبا بأسرها، لأنها مدرسة كبيرة وثرية بعلمائها، وتتبع جامعة باريس الأكثر شهرة في تلك الفترة، وكانت تحظى كلية الطب بباريس بعناية الملك فيليب الثالث(١٣٢٨-١٣٥٠م) والكنيسة، وعلي الرغم من الاعتراف بمدارس جامعة باريس في عام ١٢٠٠م، إلا أن كلية الطب تم إنشاؤها في عام ١٢٦٣م، وكانت تؤدى لأساتذتها رواتب مجزية كونها تحظى باهتمام الملك والطبقة البرجوازية والكنيسة، فضمت أشهر الأطباء في فرنسا، وهي المدرسة التى ذهب إليها البابا ذات يوم زمن الموت الأسود يلتمس منها لنصيحة للتغلب علي الطاعون الأسود. انظر: روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود،، ص ١٦٧.

(40) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.131-132. , وثيقة منشورة نقلها عن Jacob. Francischini de Ambrosiis. In the Appendix to the Istorie Pistolesi. Muratori, Tom. XI.p. 528.

(41) John Aberth: The Black Death ,p.22.

(42) Michele da Piazza, Cronaca, ed. Antonino Giuffrida (Palermo: ILA Palma, 1980), 82- 86.

(43) John Aberth: The Black Death ,p.29-30.

(٤٤) روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، ص ٧٩.

(٤٥) روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، ص ٨٨-٨٩، ١١٣،

(46) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.11-19.

(٤٧) علي السيد علي: الفناء الكبير والموت الأسود، ص ١٦٧.

(٤٨) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ،ص١٣٢- ١٣٧، ١٣٩، ١٤١.

(٤٩) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ١٣١-١٣٣.

(٥٠) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٣٣،١٤٠،

(٥١) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٣٣-١٣٤، ١٣٦.

(٥٢) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٣٨. وقد سبق الطبيب المسلم ابن النفيس ابن خاتمة في أن سبب فساد الهواء ناتج عن أسباب سماوية وأخرى أرضية فمن الأرضية الماء الآسن، والجيف الكثيرة كما يقع في مواضع الحركة إذا لم تدفن القتلى والتربة الكثيرة التراب وكثرة الحشرات والضفادع، ومن السماوية كثرة الشهب والنجوم في آخر الصيف.....وإذا كثرت علامات المطر في الشتاء ولم تمطر..." انظر: بلقاسم الطبابى: الموت بمصر والشام في العهد المملوكى، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٧م، الجزأ الأول ص ٣٣، عن ابن النفيس: دفع النقمة،مخطوط، ورقة ٥٣ب -٥٤أ.

(٥٣) الجمات: الموضع الذي يتجمع فيه الماء الراشح من حزوزه. انظر: : ثلاث رسائل أندلسية فى الطاعون، ص ١٣٣، ح٢ عن ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٦٨٦.

(٥٤) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ،ص ١٣٢-١٣٣ ،١٤٠

(٥٥) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ،ص١٣٧، ١٤١.

(٥٦) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ،ص ١٣٤.

(٥٧) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٤٨-١٥٠.

(٥٨) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٥٩) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٤٨.

(٦٠) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد،، ص ١٤٨-١٥٠.

(٦١) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٦٢) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٥٥-١٥٦.

(63) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.131-133. , وثيقة منشورة نقلها عن Jacob. Francischini de Ambrosiis. In the Appendix to the Istorie Pistolesi. Muratori, Tom. XI.p. 528.

(٦٤) الطبيب الإيطالى جنتيل دا فولينيو Gentile Da Foligno : ولد لطبيب يهودى فى مدينة بيروجيا من بيروجيا Perugia ، عمل محاضراً فى عدة جامعات منها جامعة جامعة بيروجياPerugia وجامعة بولونيا .Bologna وبادوا Padua، عندما وصل الطاعون الأسود إلى أوروبا، كان فولينيو أشهر الأطباء في إيطاليا.له مؤلفات عديدة فى الطب أشهرها تعليقات علي كتاب القانون فى الطب لابن سينا، وله مؤلفات فى فن التشريح، وتاريخ التشريح كثيرة، كانت مرجعاً طبياً للجامعات الأوربية، توفي من الطاعون في ١٨ يونيو ١٣٤٨م.

Roger French: Canonical Medicine: Gentile Da Foligno And Scholasticism **In** The Light Of Nature Essays In The History And Philosophy Of Science Presented To A.C. Crombie, Edited By 1.D. North And 1.1. Roche, Lancaster,Boston,1985,p. 21-30.

(65) Roger French: Canonical Medicine: Gentile Da Foligno,p.30-31.

(66) Karl Sudhoff, "Pestschriften aus den ersten 150 Jahren nach der Epidemie des
'schwarzen Todes' 1348," Archiv fur Geschichte der Medizin, 1911,p.43-44; Anna Montgomery Campbell: The black death ,p.38-39.

(67)Anna Montgomery Campbell: The black death and men of learning , Columbia University Press, 1931,p.61-62.

(68)Guy de Chauliac: La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac,p.170-171 ; Walsh J.J.: Guy de Chauliac, Old-time makers of medicine,p. 284-286.

(69) Guy de Chaulia: Op.Cit ,p.171; Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman,p.464-465.

(70) Jean de Venette: The Chronicle Of Jean De Venette, translated by Jean Birdsall, ; edited, with an introduction and notes, by Richard A. Newhall. Columbia University Press,1953,p.51-53.

(٧١) روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، ص ١٢١.

(72) Guy de Chaulia: Op.Cit ,p.171.

(73) Jean-Noël Biraben , Op.Cit.,p.508.

(٧٤) جيوفانى بوكاتشيو Giovanni Boccaccio: فنان إيطالى من أشهر أدباء عصر النهضة الإيطالية المبكرة ، ساعد في إنشاء الأدب العام باللغة الإيطالية. ولد في فلورنسا، كان والده يرغب فى أن يقوم بتعليمه ليكون أحد الموظفين المصرفيين، ولكن فى النهاية أصبح بوكاتشيو أديباً، وكان قريباً من رجال السلطة فى إيطاليا، وذهب إلى نابولى فى عام ١٣٣٠م ، إلا أنه عاد إلى فلورنسا في عام ١٣٤١، ليشهد بنفسه ويلات الموت الأسود، وتوفى فى عام ١٣٧٥م . انظر:
John Aberth: The Black Death ,p.31 .

(٧٥) جيوفانى بوكاتشو: الديكاميرون، ص ٤٠ .

(76) John Aberth: The Black Death ,p.21-22.

(77) I. F. C. Hecker: Ibid,p.28-32.

(78) I. F. C. Hecker: Ibid ,p.28-34;.

عن روايات معاصرة نقلها Mezeray Histoire de France, Tom. II. Paris,1685. P. 418; V. Oudegheerst' s Chroniques de Flandres. Antwerp, 1571, 4to. Chap. 175, f. 297.

(79) John Aberth: The Black Death ,p.29.

عن النسخة الإيطالية للحوليات Michele da Piazza, Cronaca, ed. Antonino Giuffrida (Palermo: ILA Palma, 1980), 82- 86.

(٨٠) خوليو فالديونب بارك: الوباء الأسود فى عالم القرن الرابع عشر، ترجمة إسحق عبيد تاوضروس، ملتقى حول ابن خلدون، البحر المتوسط فى القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض فى القصر الملكى فى إشبيلية،مايو – سبتمبر، ٢٠٠٦م، ص٢٥٥- ٢٥٦.

(٨١) جوزيف بيرن: الموت الأسود، ص ١٧٨.

(82) Jean Froissart: Chronicles,ed. Brereton, Geoffrey, Baltimore:Penguin Books 1968,p.111-113.

(83) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.15.

(٨٤) علي السيد علي: الفناء الكبير والموت الأسود، ص ١٥٩.

(٨٥) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ١٨٤.

(٨٦) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٨٤-١٨٥.

(٨٧) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ١٨٦.

(٨٨) ابن خاتمة : المصدر نفسه ، ص ١٩٨.

(٨٩) ابن خاتمة : المصدر نفسه ، ص ١٩٩.

(٩٠) ابن خاتمة : المصدر نفسه ، ص١٩٨- ١٩٩.

(٩١) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ، ص ١٩٩.

(٩٢) ابن خاتمة : المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٩٣) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٩٨-١٩٩.

(٩٤) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٣١.

(95) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.131-132. , وثيقة منشورة نقلها عن Jacob. Francischini de Ambrosiis. In the Appendix to the Istorie Pistolesi. Muratori, Tom. XI.p. 528.

(96) Guy de Chaulia: Op.Cit ,p.170-173.

(97) Michele da Piazza, Cronaca, 82- 86

(٩٨) جيوفانى بوكاتشو: الديكاميرون، ص ٤٠ .

(٩٩) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ١٧٤-١٧٥

(١٠٠) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص١٧٦.

(١٠١) ابن خاتمة : المصدر نفسه ص١٧٦.

(١٠٢) ابن خاتمة : المصدر نفسه ص ١٧٧-١٧٧.

(١٠٣) ابن خاتمة : المصدر نفسه ص ١٧٦-١٧٧

(١٠٤) ابن خاتمة : المصدر نفسه ص ١٧٧.

(١٠٥) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ١٧٨.

(١٠٦) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(١٠٧) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٧٩.
(١٠٨) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٨٦.
(١٠٩) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص١٨٦.
(١١٠) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص١٨٦-١٨٧.
(١١١) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص١٩١-١٩٢.
(١١٢) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص١٩٢-١٩٣.
(١١٣) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، حسن ص١٩٣-١٩٤.
(١١٤) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص١٩٤.
(١١٥) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص١٩٥.
(١١٦) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٩٦.
(١١٧) ابن خاتمة : المصدر نفسه، ص ١٩٦-١٩٧.
(١١٨) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، حسن ص ١٩٧.
(١١٩) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٩٨.
(١٢٠) ابن خاتمة : المصدر نفسه ص ١٩٨-١٩٩.
(١٢١) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٩٩-٢٠٠.
(١٢٢) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ٢٠٠-٢٠١.
(١٢٣) ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد، ص ٢٠١.
(١٢٤) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٦٠-١٦١.
(١٢٥) ابن خاتمة : المصدر نفسه،ص ١٦١-١٧٢.

(126) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.133-135. , وثيقة منشورة نقلها عن Jacob. Francischini de Ambrosiis. In the Appendix to the Istorie Pistolesi. Muratori, Tom. XI.p. 528; D. W. Singer, "Some Plague Tractates (14th–15th Centuries)," Proceeding of the Royal Society of Medicine 9–(2) (1916–17), 159.

(127) Ibid.

(128) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.136-137.

(١٢٩) روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، ص ١٧٠.

(130) Karl Sudhoff, "Pestschriften aus den ersten ,p.43-47.

(131) Ibid.

(132) Guy de Chauliac: La Grande Chirurgie,p.170-171.

(133) Guy de Chauliac: Ibid,p.171.

(134) Guy de Chauliac: Ibid,p.171-172.

(135) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.148.

(١٣٦) روبرت.س. جوتفريد: الموت الأسود، ص ٩٠.

(١٣٧) روبرت.س. جوتفريد: المرجع نفسه، ص ١٧١.

(١٣٨) جيوفانى بوكاتشو: الديكاميرون، ص ٤٠ .

(١٣٩) جيوفانى بوكاتشو: المرجع نفسه، ص ٤٠-٤٢ .

(١٤٠) جيوفانى بوكاتشو: الديكاميرون، ص ٤٠-٤٢ .

(141) John Aberth: The Black Death ,p.22.

(142) I. F. C. Hecker: The Black Death ,p.6.

(143) I. F. C. Hecker: Ibid ,p.9,23.

(144) Matteo Villani, Cronica, ed. Giuseppe Porta, 2 vols. Parma: Fondazione Pietro Bembo, 1995, p.10-13.

(145) John Aberth: The Black Death ,p.37.

(١٤٦) علي السيد علي: الفناء الكبير والموت الأسود، ص ١٦٠-١٦١.

(147) Jean-Noël Biraben , Op.Cit.,p.508.

(١٤٨) أمير يكو كاسترو: حضارة الإسلام فى أسبانيا- ترجمة سليمان العطار، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٤٨.

المصادر والمراجع

أولا": المصادر العربية:

ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧م)

- أعلام المغرب والأندلس – تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، ١٩٧٥م.

الجوهري: إسماعيل بن حماد الجوهري ت عام ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣م)

- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٩م

ابن أبى حجلة: شهاب الدين أحمد بن أبى بكر بن أبى حجلة التلمسانى (ت ٧٧٦هـ /١٣٧٤م).

- دفع النقمة في الصلاة على نبى الرحمة ، مخطوط بمكتبة الاسكوريال ومخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس .

ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م):

- بذل الماعون في فوائد الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض (د.ت).

الحميرى: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى)

- الروض المعطار فى خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن خاتمة الأنصاري: أحمد بن على ابن خاتمة الأنصاري ت ٧٧٠ هـ /١٣٦٩م

- تحصيل غرض القاصد منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية، تحقيق محمد حسن، المجمع التونسى للعلوم والفنون والآداب، (بيت الحكمة)، تونس، ٢٠١٣م

ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م)

- الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٤م.

الزهرى: أبو عبد الله محمد (ت فى أواسط القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى)

- كتاب الجغرافية – تحقيق محمد حاج صادق،مكتبة القافة الدينية، القاهرة، د.ت.

السيوطى: جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق محمد على الباز، دار القام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م.

أبى مظفر السرمرى الدمشقى الحنبلى (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م):

- ذكر الوباء والطاعون، تحقيق شوكت رفقى شوكت، الدار الأثرية، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ.

المقرى: شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١م)

- أزهار الرياض فى أخبار عياض، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، الرباط، ١٩٨٠م.
- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب – تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨م.

المقريزي: تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م)

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م

ابن منظور:أبو الفضل محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١هـ/١٣١١م)

- لسان العرب، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م

ابن الوردى: زين الدين بن الوردى (ت ٧٤٩هـ /١٣٤٨م):

- تتمة المختصر فى أخبار البشر، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٩م.
- أسماه النبا عن الوبا، تحقيق رائد عبد الرحيم، مجلة جامعة النجاح، فلسطين، مجلد ٢٤، ٢٠١٠م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

- أحمد السعداوى: المغرب الإسلامى فى مواجهة الطاعون (الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته) القرنين ٨-٩هـ /١٤-١٥م، بحث منشور باللغة العربية في مجلة

Revue De l'Institut Des Belles-Lettres Arabes, IBLA,1995,1,t.58,p.129.

- أحمد محمد الطوخى: مظاهر الحضارة في الأندلس عصر بنى الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧م.
- أمير يكو كاسترو: حضارة الإسلام فى أسبانيا- ترجمة سليمان العطار، القاهرة، ١٩٨٣
- بلقاسم الطبابى: الموت بمصر والشام في العهد المملوكى، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٧م،
- جوزيف بيرن: الموت الأسود، عمر سعيد الأيوبي، كلمة للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٣م.
- خوليو فالديونب بارك: الوباء الأسود فى عالم القرن الرابع عشر، ترجمة إسحق عبيد تاوضروس، ملتقى حول ابن خلدون، البحر المتوسط فى القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض فى القصر الملكى فى إشبيلية،مايو – سبتمبر، ٢٠٠٦م.
- سانشت فرانشيسكو فرانكو: تطور الطب في الأندلس ترجمة جمعه شيحة، الشاذلى النفطى، المجلة العربية للثقافة،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مجلد ١٤، عدد ٢٧، ١٩٩٤م.
- شلدون واتس: الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة الإمبريالية، ترجمة أحمد محمود عبد الجواد، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م،
- على السيد على: الفناء الكبير والموت الأسود فى القرن الرابع عشر الميلادي دراسة

مقارنة بين الشرق والغرب، المجلة التاريخية المصرية، مج ٣٣، ١٩٨٦م.

- نهاد عباس زينل: الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضارى في أوروبا القرون الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ٢٠١٣م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

- André Burguière: Dictionaire des sciences matiere: peste:par Jean-Noël Biraben , Presses Universitaires de France,Paris,1986.

- Anna Montgomery Campbell: The black death and men of learning , Columbia University Press, 1931

- David A. K. Watters: Guy de Chauliac: pre-eminent surgeon of the Middle Ages, ANZ Journal of Surgery · October 2013.

- D. W. Singer, "Some Plague Tractates (14th–15th Centuries)," Proceeding of the Royal Society of Medicine 9–(2) (1916–17),

- Guy de Chauliac: La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac, Chirurgien, Maistre en Médecine de l'Université de Montpellier: Composée en l'An 1363, Felix Alcan,Paris , 1890.

- I. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Century, Translator: B. G. Babington, A. Schloss, Foreign Bookseller, London,1833.

- Jean de Venette: The Chronicle Of Jean De Venette, translated by Jean Birdsall, ; edited, with an introduction and notes, by Richard A. Newhall. Columbia University Press,1953.

Jean Froissart: Chronicles,ed. Brereton, Geoffrey, Baltimore:Penguin Books 1968. -

- John Aberth: The Black Death , The Great Mortality of 1348-1350 abrief history with documents ,(Bedford Series in History and Culture) , Palgrave Macmillan , New York, 2009.

- Karl Sudhoff, "Pestschriften aus den ersten 150 Jahren nach der Epidemie des

'schwarzen Todes' 1348," Archiv fur Geschichte der Medizin, 1911.

- Matteo Villani, Cronica, ed. Giuseppe Porta, 2 vols. Parma: Fondazione Pietro Bembo, 1995.
- Michele da Piazza, Cronaca, ed. Antonino Giuffrida (Palermo: ILA Palma, 1980.
- Norman F. Cantor, In the Wake of the Plague: The Black Death and the World It Made , Free Press, New York, 2001.
- Roger French: Canonical Medicine: Gentile Da Foligno And Scholasticism In The Light Of Nature Essays In The History And Philosophy Of Science Presented To A.C. Crombie, Edited By 1.D. North And 1.1. Roche, Lancaster,Boston,1985..
- Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, 1347-1353 Canadian Bulletin of Medical History, Volume 25 Issue 2, Fall 2008, pp. 461-498.
- Walsh J.J.: Guy de Chauliac, Old-time makers of medicine, Catholic Churchmen in Science, New York ,2007.